الفيوضات الربانية

بتفسير بعض الآيات القرآنية

للعالم المفسر

سيدى أحمد بن إدريس

رضى الله تعالى عنه

تحقيق

العارف بالله تعالى سيدى

الشيخ صالح الجعفرى

رضى الله تعالى عنه

الناشر

دار جوامع الكلم

١٧ ش الشيخ صالح الجعفرى ت : ٥٨٩٨٠٢٩

الفيوضات الربانية

بتفسير بعض الآيات القرآنية

لعالم زمانه وقطب أوانه بحر العلوم اللدنية وكنز الأسرار الربانية
صاحب العلم النفيس مولانا

السيد أحمد بن إدريس الشريف الحسنى المغربى
رضى الله تعالى عنه

علق عليه العارف بالله تعالى
سيدى الشيخ صالح الجعفرى
رضى الله تعالى عنه

الناشر : دار جوامع الكلم - ت : ٥٨٩٨٠٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذى جعل العلماء ورثة الأنبياء ، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً .

وصلى الله تبارك وتعالى على سيدنا ومولانا محمد، خير من أقلتة الغبراء، وأظلته السماء.

ورضى الله تبارك وتعالى عن آله وعترته الأوفياء ، وصحبه النجباء .

وبعد

فإن العلم أشرف ما فى الوجود ، وبه فضل سيدنا آدم على الملائكه ، واستحق السجود له تشريفاً وتكريماً، ولهذا قال الحق جل وعلا : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾. وقال سبحانه :﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

ويقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر).

وقد كان سيدنا ومولانا الإمام الشيخ صالح الجعفرى الذى قام بطبع هذا الكتاب فى طبعته الأولى بحراً زاخراً حافلاً بالدرر واللآلىء فى علوم الشرع وغيرها، وكان من السابقين إلى نشر العلم الشريف وتيسير الاستفاده منه .

ولهذا حرص على نشر هذا الكتاب بعد تقويمه وتيسيره كما ذكر ذلك فى مقدمته .

وهذا الكتاب يشتمل على تفسيرات جليلة لصاحب العلم النفيس سيدنا ومولانا أحمد بن إدريس رضى الله تعالى عنه ، منها تفسير لسور كاملة ، وهى سور الفاتحة ، والضحى، والشرح، وقريش ، والكوثر ، ومنها تفسير أول سورة البقرة ، وهو خمس وسبعون آية منها ، ومنها تفسير آيات وقع خلاف بين المفسرين فى تفسيرها ، وآيات ورد السؤال عنها ، وآيات تشتمل على نكت فى التفسير لايتنبه لها الكثيرون .

كما يشتمل على فوائد لغوية ونحوية وفقهية ، وفوائد تتعلق بالسيرة النبوية .

وبالجملة فهو كتاب قيم كثير الفوائد لا يستغنى عنه عشاق العلم النفيس ومحبوه ، وهو من الكتب التى لا يمل المؤمن من قراءتها لما يحصل له منها من بصيرة وتبصر ، ونور واستنارة وهدى وتقوى .

ونسأل الله تعالى أن ينفع به ، وأن يوفق قارئه للعمل بما فيه من الفوائد ، إنه تعالى سميع مجيب .

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول العارف بالله تعالى سيدى الشيخ صالح الجعفرى رضى الله تعالى عنه :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله وعلى آله فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله .

وبعد

فيقول راجى رحمة ربه صالح المدنى بن محمد بن صالح الجعفرى : قد أحضر لى السيد إدريس بن السيد محمد الشريف رضى الله تعالى عنه أوراقا مخطوطة فيها تفسير آيات قرآنية للسيد أحمد بن إدريس رضى الله تعالى عنه وهى عن السيد الحسن بن السيد على اليمنى الإدريسى أحضرها معه من اليمن، وبعد التعب الشديد فى تصحيحها حذف مالا يمكن تأويله بحسب الظاهر قد جاء بفضل الله تعالى ميسراً .

أسأل الله تعالى أن ينفع به كما نفع بقائله رضى الله عنه تعالى آمين ،

الشيخ صالح المدنى

ابن الحاج محمد صالح الجعفرى

من علماء الأزهر الشريف

تفسير سورة الفاتحة

قال شيخنا وقدوتنا صاحب العلم النفيس مولانا الشريف السيد أحمد بن إدريس رضى الله تعالى عنه :

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على مولانا محمد وعلى آله فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الاسم والمسمى شىء واحد لا يتميز عنه وهما حقيقة واحدة ، ومن ثم قال الله عز وجل : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ﴾[1] فأعاد الضمير على الأسماء و المعروضة المسميات ، لكونها عينها لاغيرها ، وإذا تجلى الحق لا ترى غيره ، فلا ترى هنا أسماء متميزة فى ذاتها .

وكذلك الخلق فإن الرجل الكاتب والشاعر والخياط والشجاع والكريم والنجار ونحوه إذا أبصرته لاترى إلا ذاته ، فلا ترى شيئا من ذلك قائما بذاته يبصر كما تبصر الألوان، ولاتبصره لمجرد النظر إليه بذلك الاسم الذى هو الوصف إن لم تكن تبصره فى الخارج ، ولا تبصره منه إلا بظهور الأثر فيه فإذا كتب علمت أنه كاتب، وإذا قال الشعر علمت منه أنه شاعر، وإذا خاط علمت أنه خياط ، وإن قدم على المهالك ولم يخف السيوف والرماح علمت أنه

شجاع ، وإن أعطى علمت أنه كريم، وإن نجر علمت أنه نجار ، وهكذا .

إذن فالأسماء والذات حقيقة واحدة ، والمعنى أن الحمد برز باسم الله الذى هو مجمع جميع الأسماء من حيث الرحمن الرحيم، وذلك أن الله سبحانه وتعالى حمد نفسه بنفسه عنا رحمة بنا لما علم أننا لا نقدر على القيام بحمده كما يليق بجلاله وكماله، فقام خليفة عنا باسم الوكيل وإذا كان الوكيل قائما بنفسه رحمة بأحد يعلِّمه أنه لا يعرف أن يقوم بأمر نفسه ولا يدرى ما يضره ولا ينفعه[1] كان أبلغ فى الاغتناء «أى الاستغناء» بخلاف ما إذا كان يحتاج إلى من يحثه على ذلك سواء كان الموكل أو غيره فإنه دليل على التقصير .

هذا وأصحاب المروءات من الخلق يكون الواحد منهم حركته فى مكارم الأخلاق من نفسه وباعثه منه ، كما قيل فى بعضهم :

أيا جود معن[1] ناج معنا بحاجتى
فليس إلى معن سواك سبيل

فكيف بأكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ؟ وأى سبب لنا حتى أوجدنا؟ فليت شعرى من الطالب له غيره ، فلو عقلنا مع الله فى وجودنا كما كنا فى عدمنا ، برحمته لنا عن أن نطلب الرحمة لنفوسنا ، أنه أرحم بنا منا بأنفسنا ، وتوكلنا عليه كما هو الوكيل

(١) هو معن بن زائدة وكان يضرب به المثل فى الجود

الذى وكل نفسه لنا قبل أن نكون ، ووكالته لنفسه لا يدخلها خلل، بخلاف ما إذا كانت الوكالة منا فإنها حقيقة على قدرنا وإذا كان الإنسان يمرض فيأتى بطبيب فيسقيه دواءً كريها ويكون هو يحسن الظن به أنه ما مراده إلا العافية ، ويبسط له الفراش الطيب إكراما ، ومع ذلك يعطيه أجره ولا يرى أن مراده أذاه ، فأرحم الراحمين أولى بذلك .

وحقيقة التوكل وسنامه أن يتوكل عليه ليكفيه ولانه أهل أن يتوكل عليه ، وأنه لا ينازع فى ملكه وأعرف بالصالح منه ، وأنه أعلم بجلبه إليه، ودرء المفاسد عنه ، ومن ثم قال الصديق رضى الله تعالى عنه حين قيل له : ألا ندعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب هو الذى أمرضنى. وهذا ليس من سوء الأدب كما زعم بعضهم ، بل من الفهم عن الله؛ إذ معناه تمريضى هو عين الطب وهو كذلك ، فإذا كان يطهر بالمرض فيجعله سببا للجمع به عز وجل فهو الطبيب الذى لا يغادر سقما .

إذا عرفت هذا علمت أن الوكيل يتكلم بلسان موكله فيقول : لى على هذا دين مثلا ، ولى بذلك دين، فينزل نفسه منزلة موكله ، ولا يحتاج إلى ذكر الموكل فإنه معلوم عند القاضى والخصم أنه وكيل .

وبهذا نعلم أن قول بعض المفسرين يقدر قول قبل ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من عدم فهم أن الحق قام باسم الوكيل عنا، وهذه أسرار بدلية تلوح إن شاء الله لمن فهم عنها ، فهى أكبر النعم على الإطلاق إذ إيجاد العالم كله فرع عن توجهها عليه ، فهى أصل كل مخلوق وكلها منافع لنا فى الدنيا والآخرة اللطفى منها والقهرى ، أما اللطفى فظاهر ، وأما القهرى فلأنه يكون أثره فينا عن الرحمة لنا كقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم : (الحمى حظ كل مؤمن من النار ، وحمى يوم، كفارة سنة، ولا يصيب المؤمن من نصب ولا وصب حتى الشوكة يشاكها إلا رفعه الله بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة المظلومون هم المفلحون يوم القيامة) .

وأيضا قد يتوجه قهره على ما يؤذينا فإنه إذا لم يقهر الجوع عنا والعطش والخوف والهم والحزن ونحو ذلك باسمه القهار لا تذهب عنا ، فكل اسم من أسماء القهر ممحض للعذاب وأن أسماء الرحمة متمحضة للرحمة ، مع أن أسماء الرحمة أكثر من أسماء العذاب كما هو مشاهد حتى فى المادة الواحدة تجد صيغ تلك أكثر من صيغ هذه.

فإن مادة القهر ليس فيها إلا القاهر القهار على صيغة فاعل وفعال ، ومادة الغفر فيها الغافر والغفور والغفار على صيغة فاعل وفعول وفعال .

فلتلك اسمان وهذه ثلاثة ، وما كان طائرا بثلاثة أجنحة يسبق ما كان طائرا بجناحين ، لأن الجميع قوى ، وكلها أسماء الله فهى مستوية فى القوة ، فقاهر مقابله غافر ، وقهار يقابله غفار ، وبقى غفور معين لأخويه وليس من أسماء الله قهور ، ومن ثم قال الله عز وجل : (سبقت رحمتى غضبى) .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الألف واللام الداخلة على المبتدأ جنسية تفيد الحصر أى حصر المبتدأ فى الخبر كقولهم : الكرم فى العرب والشجاعة فى قريش ، وفى ذلك تفصيل أشار له الأجهورى بقوله:

بلام جنس عرفا منحصر

فى خبرية وفاقا يذكر

فالمعنى حينئذ : أحمد الله بالله على معنى صدوره منه، أى : لا حامد سواه لعجز الخلائق عن إتيانهم بالحمد على حقيقته ، فإنه لما عجز خلقه عن حمده حمد نفسه بنفسه نيابة منه عنهم ، فحمدنا وإن بلغ ما بلغ ليس بحمد فى الحقيقة لقصوره وحصول النيابة عنه بحمد الله .

ثم النكتة التى يترتب عليها الحمد بقوله : رب العالمين أى موجد المخلوقات كلها ، ومدرجهم من طور إلى طور حتى يحصل الانتفاع بها كلها فى جميع أطوارها لمن خلقت لأجله ، وهو النوع البشرى فى معنى المحمود عليه ، فإن جميع العالم مخلوق لنا قال

تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[١] إلى غير ذلك فكأن التالى يقول أحمد الله بحمده الذى حمد نفسه به، النائب عما وجب علىَّ من الحمد ، الكائن فى مقابلة نعمه التى من جملتها هذه العوالم كلها التى خلقت من أجلى ، فأشرفها أولو العلم من الملائكة والجن وغير ذلك ، وكذلك غلب العاقل على غيره فجىء بالجمع مذكراً عاقلا ، وإلا فالمحمود عليه أولو العلم بمحض فضله وكرمه سبحانه وتعالى فقال بعد حمده .

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أى : إيجاده لنا وإيجاده ما خلقه لأجلنا إنما هو بمحض رحمته وجوده ، وأتى بالاسمين فى صفة المبالغة إشارة إلى أن ما صدر منه ليس هو تمام رحمته وجوده ، بل رحمته كثيرة ، وجوده غزير حتى إن ما علمتوه بالنسبة إلى ماجهلتموه شىء يسير لا نسبة له معها ، كنقرة عصفور من بحر أو أدنى من ذلك ، فدخل فيه جميع الأسماء .

ودخل فى قوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أسماء الجلال والجمال كلها بصدقه على البرزخ وما بعده الذى الدنيا بالنسبة إليه كالرحم إليها ، وهو بالنسبة ليوم القيامة كالرحم إلى الدنيا ، فهناك تتحقق مظاهر أسماء الله تحقيقا لا يرتاب أحد فيه، فيبدو سلطان القهر والغلبة على أتم وجه وأكمل حال من [٢] كل معاند

(١) الجاثية / ١٣ .

(٢) كذا فى الأصل ولعلها : مع

وجاحد وملاحد ، وسلطان الرحمة والامتنان واللطف لمن آمن بالله ورسوله وسلك سبيله واقتفى أثره دقيقه وجليله ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾[1] الآية .

ثم إنه لما ذكر الحقيقة بالحمد ، ووصف بتلك الصفات العظام التى توجب إقبال العبد على ربه ، وتعينه بالخطاب الذى وجه كما تعين .

قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ليكون أدل على الغيبة إلى الشهود وكأن المعلوم صار عيانا ، والمعقول مشاهدا ، والغيبة حضورا لتناول كلام على ما هو مبديه حال العارف من الذكر والفكر والتأمل فى إنشائه ، والنظر فى آياته ، والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه وباهر سلطانه ، ثم قضى بما هو منتهى أمره وهو أن يخوض لجّة الوصول ويصير من أهل المشاهدة ، فيراه عينا فيناجيه شفاها ، لملاحظة نفسه فى حضرات القدس مشاهدا له الحاضر والأنيس واقفا بين يديه ضارعا إليه بالخضوع والالتجاء ، قارعا باب المناجاة قائلا يامن هذه شئونه ، وتحصل بالعبادة والاستغاثة على غاية الجمع والإقبال ونهاية التضرع والابتهال، وهذا هو السر فى اختصاص تكررات الفاتحة فى كل ركعة من جميع الصلوات التى هى عبارة

(١) النساء / ٦٩ . وتمامها : (والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

عن مناجاة العبد مولاه لكونه يحكم على نفسه فى كل ركعة بأنه لا يعبد على حق سواه ، ولا يستعان بمن عداه ، فمتى تعلق قلبه بشىء أو تخيل استعانة لمخلوق فقد نقض العهد الذى أبرم فإن تقديم المعمول يؤذن بالاختصاص ، أى لا نعبد إلا إياك، ولانستعين إلا بك ، فنرى كل مصل فى الصلاة يعاهد ربه بذلك فى كل صلاة، ومقتضى ذلك من ذوى العقول عدم نقض المواثيق بعدم جميع المنهيات ، والامتثال لجميع ما يستطاع من الأمور المأمورات، ولذا قال الله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[1] لما اشتملت عليه من المواثيق والعهود المتجددة فى كل يوم خمس مرات ، وكان عبد الحق الإشبيلى بالجزيرة من أجلّ علماء وقته ، فرأى النبى عليه الصلاة والسلام وأمره بأن يذهب لأبى مدين ويقرأ عليه سورة الفاتحة فقبل ، ثم لما انتبه تحير كيف يؤمر مثله بالذهاب لرجل لم يقرأ من القرآن إلا شيئا يسيرا من سورة الملك إلى آخر القرآن ؟ أمثلى يذهب لذلك مع كونى أحفظه كله بجميع رواياته ومعرفة معانيه ؟! فقلت : إن كان له عمل فلنا بعض عمل ، وإن كان يقرأ الشىء اليسير فنحن نقرأ الكثير فما السبب ؟ فجاءه بعض تلاميذه فأخبره ، فقال: اذهب بنا إليه فما أمرك الرسول عليه الصلاة والسلام بذلك إلا لسر ، فجاءا إليه

(١) العنكبوت / ٤٥ .

فلما دخلا عليه المجلس قال لهما : مرحبا بعبد الحق وصاحبه .

ثم قال ياعبد أدن منى وامتثل أمر الرسول عليه الصلاة والسلام فدنا فقرأ حتى « إياك ..... إلخ » فقال له: ما معناه ؟ فقال : معناه لا أعبد إلا إياه ولا أستعين إلا به فقال له : فما بالك تذهب إلى الأمير وتترد عليه! فجعل يعتذر فقال : لأجل هذا أمرك الرسول عليه الصلاة والسلام بقراءة الفاتحة علينا ، ثم رجع فلما وصل لمحله دخل خلوة واشتغل بالعبادة، فسأل عنه الأمير فجعل الوشاة يطعنون عليه ويسبونه بأنه تكبر ونظر لعلمه واستنكف عن القدوم إلى الأمير ، وكان إذ ذاك شأن العلم أن يؤتى ولا يأتى ، فجاءه لخلوته بقصد زيارته بجميع أصحابه وجنده ، فإنه لما كان يستعين بغير الله أخدمه الله لغيره ، ولما رجع واستعان به أخدم الله له الأمير وجنده .

ولما أكمل القاضى البيضاوى تفسيره وحمله للأمير على عادة العجم ، ولما كان فى أثناء الطريق بالبادية رأى فقيراً صوفيا فاستضافه فأضافه الفقير وأحسن ضيافته ، ثم سأله عن سبب سفره فقال له : إنى ألفت كتابا فى التفسير وأردت أن أرفعه للسلطان لأقتبس منه صلة ويحصل له القبول ، فقال الفقير : بم فسرت قوله تعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ؟ فقال لا أعبد إلا إياك ولا أستعين إلا بك ، فقال له الفقير : إن كنت لا تستعين إلا به فلماذا تذهب للسلطان ؟ فاعتذر بأن له بنات وأراد تزويجهن

فلم يجد مايزوجهن به ، ثم سرت فيه موعظة الفقير فرجع ففرج الله عليه أمر بناته من حيث لا يحتسب ولا يدرى ، ووقع الإقبال على تفسيره دون غيره من التفاسير مع كثرتها جداً .

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الذى أنت عليه وذلك لقوله :﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1] ومعناه : خَلِّقنا بأخلاقك . ثم لما كان لا طريق لمعرفة الله من طريق نفوسنا – فإن هذا العالم الذى هو نسخة من العالم الكبير خلقه الله على صورته كما فى الحديث «من عرف نفسه عرف ربه» ، وقال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[2] أمرنا بمعرفة الهداية بطريق معرفة النفوس ليحصل المقصود الأعظم والغاية القصوى ، والمراد بالصراط المستقيم : الطريق الموصل لمعرفة النفس على الحقيقة الموصلة لمعرفة الله ، وقد أبان ذلك صاحب النصوص فى الفصل الأول على غاية التحقيق على ما أمر به الرسول عليه الصلاة والسلام.

احذروه فإنه غيور
فلا تجعل فى قلبك سواه

ثم بين ذلك الصراط بأنه ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ بالمعرفة الحقيقية فمتى كان الغالب عليهم الاشتغال بك عشقوك وعشقتهم ، فجعلت لذتهم وجبلتهم على ذكرك، فرفعت الحجاب فيما

(١) هود / ٥٦ . (٢) فصلت / ٥٣ .

بينك وبينهم ، وفى جمالك نزهتهم فى حزب من تقربوا إليك بالنوافل ، فكنت أسماعهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم وألسنتهم وأفئدتهم ، فكنت إياهم وكانوا إياك من غير اتحاد ولا حلول ، ولا كان العبد ربا ولاكان الرب عبداً على حالة يعلمها من أذقتها إياه من النبيين والصديقين.

﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ كمن كان يعبد غيره بمحبته وتغيير قلبه واستعان به إذا اتكل عليه وهو[1] على مراتب . فمنه غضب وسخط وطرد كغضبه على اليهود ومن نحا نحوهم على ما قص الله فى حقهم ، وغضب تأديب ومنه ما وقع لعامة الناس من الحدود والزواجر عنها ، ومنه غضب غيرة ومنه ما يقع لأوليائه ، فإنه يبحث الرب قلب عبده المؤمن فمتى حل فيه غيره غضب لشدة غيرته على قلوبهم أن يعمرها غيره أو تعلقت بسواه ، وقد كان بعض العلماء فر بنفسه ولزم مغارة ولا أنيس بها ليتجرد عما سواه فجعل الناس يذهبون لمحله ذلك ويرصدونه عساهم يرونه فإذا رأى الناس فرّ وتوارى عنهم ، فرصده بعض أصحابه حتى رآه ففر منه فقال : لاغرض لى فى شيء سوى أن أسمع منك كلمة تعظنى بها فقال له : احذره فإنه غيور فلا تجعل فى قلبك سواه . ولهذا أمر الله الخليل بذبح ولده إسماعيل ، لأنه جاءه على الكبر ففرح به ، ومال إليه

(١) أى الغضب الإلهى .

بقلبه بعض الميل ، ومال إليه إسماعيل كذلك ، فغار الحق عليهما فأمره بذبحه .

فلما امتثل لجميع ما أمر به ، وحصل تفريق قلب كل من صاحبه فداه الله تعالى من الذبح أى : بالكبش، ولذا أيضا فعل بيوسف ما فعل على يد إخوته ، لأنه لمّا تعلق قلب أبيه به لما تفرسه من النور النبوى ولما مال يوسف لأبيه ابتلى بالرمى فى الجب .

ثم لما لم يبق له سوى التعلق بالحق أوحى إليه لمجرد الإلقاء فقال :﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾[1] إلى آخر الآية فجاءته النبوة عندما خلص قلبه من جميع ماسوى الله ، وخلص قلب أبيه كذلك ، فقال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾[2] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ عن طريق معرفة نفوسهم فلم يعرفوا ربهم ، إما عن طريق الدليل والبرهان كمعرفة النصارى وجعلهم الله ثالث ثلاثة ، أو شهود عيان كمعرفة عامة الناس ، لضلالتهم عن هذه المرتبة ، لعدم معرفة طريق نفوسهم التى هى السبيل لمعرفة الله بشهادة الرسول عليه الصلاة والسلام[3] وكلام الله تعالى فى غير ما موضع فيه ، وأما من أيده الله فوفقه لذلك السبيل فنال المنى وأزال عنه العناء وقليل ماهم .

(١) يوسف / ١٥ .
(٢) يوسف / ٨٦ .
(٣) لعله يشير إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (من عرف نفسه فقد عرف ربه) .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين على أمور الدنيا والدين

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1] قوله: الم . هو ونحوه من أوائل السور - كقوله تعالى حم عسق، ص ، ق ، ن إلى آخر السور - ما بعده إلى تمام السورة بعض تفسيره، وله من التفسير فوق ذلك ، فإيراد (ذلك الكتاب) .... السورة بعده من إيراد الخاص بعد العام .

قوله «ذلك» الإشارة إلى الغيب المدسوس فى قوله ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الْكِتَابُ﴾ سماه كتاباً لأن كل حرف فيه بقية الحروف فالحرف الواحد رسول واحد ، والرسول الواحد عين الرسل كلهم ، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾[2] فجمعهم ثم فسر الجمع بقوله : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[3] فسمى نوحا بالمرسلين ، وهكذا ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[4] فسمى بالمرسلين ، فجعل الرسول الواحد الرسل كلهم ، فكذلك الحرف الواحد هو الكتاب كله، فمن كفر بحرف كفر بسائر الكتب المنزلة.

---

(١) البقرة / ١، ٢ .
(٢) الشعراء / ١٠٥ ، ١٠٦ .
(٣) الشعراء / ١٠٦ .
(٤) الشعراء ١٢٣ ، ١٢٤ .

ومن قال من المفسرين - كالجلال رحمه الله تعالى - عن أوائل السور الله أعلم بمراده بذلك فقد أجاد وأصاب لقول الله تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[1] .

وإنما قال : ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ ولم يقل القرآن ، لأن الكتاب هو الوجوب ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[2] والقرآن هو الجمع ، فالكتاب فيه فائدة .

والدليل على أن التالى للقرآن يثاب ولو لم يعلم المعنى أوائل السور ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : (من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف) ولكن لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ،

واعلم أن التالى نائب عن الله تعالى ، فهو يتكلم بكلام الله، فلذلك لا ينسب الكلام إليه فيقال فى القرآن كلامه، بل كلام الله، مع أنا نسمع القرآن منه، فالله هو المتكلم بالقرآن بكل لسان.

وقوله تعالى : ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى : للمتقين فحذفه من الأول لدلالة الثانى عليه ، والريب أخص من الشك ، لأنه يشك مع ارتياب قال تعالى : ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[3] .

---

(١) الإسراء / ٣٦ .
(٢) الأنعام / ٥٤ .
(٣) إبراهيم / ٩ .

وقوله تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أى بيانا لهم ليفوزوا فهم المقصودون بالانتفاع .

وأما قوله تعالى : ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾[1] فالمراد به يظهر الحق كالشمس فلا يبقى لأحد حجة . وليس ذلك خاصاً بالمتقين بحيث تقوم الحجة التامة عليهم .

وقوله تعالى : ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ تنازعه كل من ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ و﴿هُدًى﴾ وإنما كان المتقون لا يرتابون فيه لأن إيمانهم به إلهى، إذ التقوى توجب محبة الله تعالى ، ومن أحبه كان سمعه وبصره ويده ورجله وفؤاده ... إلخ . كما يليق بجلاله، فإيمانه هو إيمان الله بنفسه فلا يقبل الريب فما هو من عند نفسه بل هو من عند الله ، وتقريبه وحاصله أن إيمانهم لدنّى .

والتقوى: القيام بما أمر الله به لله ، واجتناب ما نهى عنه له .

الغيب

كل ما غاب عنا

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[2] . ﴿الْغَيْبِ﴾ القلب لأنه غائب فى الصدر ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿التقوى ها هنا﴾ وأشار بيده إلى قلبه ، فمحل إيمانهم القلب لا اللسان ، فيكون المعنى : للمتقين

(١) البقرة / ١٨٥ .

(٢) البقرة / ٣ .

الذين يتقون بقلوبهم تقوى خالصة عن الرياء والسمعة ، لا بظواهرهم فقط كما هو شأن الخالى ، ولا إسلام فقط كما هو شأن ذوى النفاق . فافهم .

﴿ والْغَيْبِ﴾ كل ماغاب ، فالحق غيب عند أكثر الخلق مع أنه معهم ولكن لما كانوا غائبين عنه كان غيبا بالنسبة إليهم ، فأطلق عليهم غيب، فهم يؤمنون به على الغيب ، كما يؤمنون بسائر المغيبات، والمعنى يؤمنون بما غاب عنهم ، وأخبرهم الشرع به لقلوبهم إيمانا ربانياً حقياً.

فالغيب: أى كان الحق سمعهم وبصرهم فقام فيهم الإيمان الذوقى من كينونة الله لهم وهكذا .

وإيمانهم غيبى إلهى وغيبى قلبى بكل ما أخبروا به فى الشرع من المغيبات ، فقوله : الغيب شامل لذلك كله ، ومثله فى كون الغيب الله والقلب ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾[1] أى يخشون الله بالله (لطيفة) من كان من الناس صاحب شهود يدخل أيضاً فيما ذكرنا، لأنه وإن كان آمن بالحق على عيان فمن وراء ما شهد غيب لا نهاية له .

قال الخضر عليه السلام وهو من أكابر المقربين لموسى عليه السلام ، وهو من أكابر الرسل عليهم الصلاة والسلام :

(١) الأنبياء / ٤٩ .

(ما علمى وعلمك من علم الله إلا مقدار ما أخذه الطائر بمنقاره من البحر) أى من العلم الشهودى .

وقوله ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ على حد ما كان يصليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من التطويل فيها والخشوع بإفراغ الوسع فيها ظاهراً وباطنا .

وقوله ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ المراد به الزكاة ، فلذلك حيثما ذكر الحق الانفاق لايذكر الزكاة ، والزكاة حيث أطلقت لا تختص بالمال بل المراد بها طهارة البدن من قانورة المعاصى . قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾[1] ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾[2] فيشمل الغنى والفقير ومن زكى النفس فلا شك أنه لا يبخل بالمال ، ومن أعظم الإنفاق إنفاق العلم النافع الذى به تكتسب السعادة الكبرى، والمراد يؤتون الزكاة حقها ، وضدهم الذين يبخلون بأنفسهم فى الله ، كما قيل شعراً :

ومن لم يجد فى حب نعم بنفسه
ولو جاد بالدنيا إليه انتهى البخل

فالنفس هى الأصل المتقدم ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ﴾[3] وأتى بمن التبعيضية ليدل على أنه إذا أنفق البعض

(١) الشمس / ٩ .
(٢) الأعلى / ١٤ .
(٣) التوبة / ١١١ .

فى طاعة الله ، وترك البعض ، واستراح بعض الأحيان فقد أنفق مأمر به ، وأشار على أنه على كل حال لاينفق إلا البعض ، فإن قيل الشهيد الذى يقتل فى سبيل الله قد أنفق كله . فالجواب أنه لم ينفق الكل ثم بذلها فما أنفق إلا البعض . فالعباد ليسوا مأمورين بإنفاق الكل إذ ليس فى وسعهم اهـ .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[1].

هؤلاء دون السابقين فى المرتبة أى لم يفرقوا بين الكتب والرسل ، فليست خاصة بأهل الكتاب ، بل حتى فينا معشر الأمة الإسلامية فإنه كتب علينا الإيمان بسائر الكتب والرسل ، إذ ذلك فى كتابنا .

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[2] .

وشهد الله لنا ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ﴾ إلى ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾[3] وما أخبرنا الله عن الأمم كلهم إلا لنحوز أخبار

(١) البقرة / ٤ .
(٢) البقرة / ١٣٦ .
(٣) البقرة / ٢٨٥ .

الرسل كلها ونؤمن بها فيتضاعف لنا الثواب بلا حد . وأما من كان من أهل الكتاب وآمن برسولنا فيؤتى الأجر مرتين فقط .

﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾[1] أى : آمنوا من قوم عيسى عليه السلام بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾[2] وهو الأجر مرتان ، ثم قال : ﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ أى إخوانهم الكفار منهم ﴿ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[3] .

وهذا متعلق بقوله ﴿ آتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ أى آتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ليلبس على الكثير الفاسقين وهم المراد بأهل الكتاب هنا ، فأراد الحق بإعطاء المؤمنين الأجر ليبينهم على الذين لم يؤمنوا وليعلموا أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله، مع أن الواقع كذلك فتوفرت فيهم داعية الضلال لتحق عليهم الكلمة لعلمهم شقاوتهم وأنهم أهلها الحقيقيون بها فهم من القبضة التى قال فيها هؤلاء ولا أبالى للنار ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾[4] فالعدو جزاؤه أن يعمى عليه الطريق ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[5] .

وقوله ﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ .

---

(١) الحديد / ٢٧ .
(٢) الحديد / ٢٨ .
(٣) الحديد / ٢٩ .
(٤) الأنبياء / ٢٣ .
(٥) الأنعام / ٩ .

ذُكروا هنا بعد أن ذكر (يؤمنون بالغيب) من ذكر الخاص بعد العام .

﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[1] أى على بصيرة من أمرهم ، وإنما قال على هدى ليدل أنهم دون السابقين فى الرتبة أى فَهُمْ على الهدى غير ضالين .

فالأولون أهل كمال الإيمان وهؤلاء أهل مطلق الإيمان، والفلاح هو الفوز بالله .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[2] . بعد أن ذكر المؤمنين ذكر الكفار ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : فى علمنا ، فإن قيل إذا كانوا لايؤمنون فما فائدة الإنذار .

فالجواب أن الإنذار لإقامة الحجة عليهم ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾[3] .

﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[4] .

﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾[5] .

---

(١) البقرة / ٥ .
(٢) البقرة / ٦ .
(٣) النساء / ١٦٥ .
(٤) القصص / ٤٧ .
(٥) طه / ١٣٤ .

ولا حجة لهم فى قولهم : لو شاء اللّه ما أشركنا به وما عبدنا من دونه من شىء ولا يحتج به ، لأنهم لم يقولوه باللّه بأن كان الحق سمعهم وبصرهم فلا يشهدون فاعلا غيره ، وإنما قالوا من عند أنفسهم ليجادلوا به الحق عنهم ، فهى كلمة حق أريد بها باطل ، إذ القدر لايؤمر به ولا يحتج به . ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾[1] فزكوا به أنفسهم ، والتزكية لا تجوز بالحق ، فكيف بالباطل ؟!

نعم .. من زكاه الحق بأن كان لسانه الذى يتكلم به فهو ناقل عن اللّه تزكية اللّه له ، لايزكى لنفسه بنفسه ، قال صلى اللّه عليه وآله وسلم : «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» .

كأنه قيل ولم لا يؤمنون ؟ قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2] .

الختم على القلب سده حتى لا يدخل فيه خير، كما تسد أفواه الأوانى حتى لا يخرج منها ما فيها ولا يدخل غيره ، فالختم أبلغ من الربط ، لأنه ينحل بأدنى سبب ، بخلاف الختم يصير بعض الأحيان كأنه من جنس الإناء حتى يتخيل أن لا فم لذلك الإناء ، وذلك من الإتقان ولا أتقن من اللّه ، فلا يفتح ما ختمه ولا ما ربطه

(١) الأعراف / ٢٨ .
(٢) البقرة / ٧ .

حتى يفتحه هو بنفسه أو يحله ، وليس المراد أن قلوبهم لا تعى أصلا ، وآذانهم لا تسمع أصلا ، وعيونهم لا تبصر أصلا ، إذ لو كانوا كذلك لعذروا بل المراد ألا يدخل الخير عليهم أصلا ، ويبقى الشر مكانه فى قلوبهم ولا يخرج ، لعدم وصول ما جاءت به الرسل إليهم ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[1] أى فى أمتها ، والغشاوة للبصر كالختم لغيره ، وقال اللّه أيضا فيهم : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[2] وكما قال اللّه تعالى فوجدوا أنفسهم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[3] وقوله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[4] هو الحجاب عن ربهم ضد الفلاح ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[5] .

تنبيه : القرآن بحر محيط لا ينحصر فى معنى واحد قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم **«القرآن ذو وجوه كثيرة فاحملوه على أحسن وجوهه»** ومن جاء إلى البحر لا يأخذ قطرة ويقول هو البحر كله .

قال أبو الدرداء – وهو من عظماء الصحابة – : لا يفقه

(١) الإسراء / ١٥ .
(٢) فصلت / ٥ .
(٣) المطففين / ١٥ .
(٤) آل عمران / ١٧٦ .
(٥) الإسراء / ٤٦ .

الرجل كل الفقه حتى يعلم للقرآن وجوها كثيرة ، ويعلم أيزداد هو أم ينقص ؟ ويعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ﴾[1] فما دام القلب واقفا مع الله لا تأتيه نزغات الشيطان فإذا مال إليه قليلا التُقِمَ .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[2] . أى وماهم بمؤمنين بقلوبهم ، فقولهم ﴿آمنا﴾ تقية يحرزون بها أنفسهم وأموالهم فتقى أموالهم ودماءهم، لعدم الاطلاع على قلوبهم ، وهكذا أمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قتيل أسامة الصحابى وذلك أنه قتل فى الجهاد رجلا بعد أن قال (لا إله إلا الله) فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غضباً ماغضب مثله ، وقال له : أقتلته بعد ماقالها ؟ قال : نعم . فقال له : وكيف بـ (لا إله إلا الله ؟!) فقال له : إنما قالها تقية : فقال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : هلا شققت عن قلبه ؟ وقال رجل من الصحابة يا رسول الله أرأيت إن قطع يدى فأهويت لأقتله فقالها ؟ فقال له : إن قتلته صرت مثله قبل أن يقولها ، وصار مثلك قبل أن تقتله – يعنى هو مات مسلما وأنت عشت كافراً – فلا دليل على المنافقين فى الظاهر حتى يقتلوا ، والحال أن الرسول صلى الله

(١) الأعراف / ٢٠١ .
(٢) البقرة / ٨ .

عليه وآله وسلم كان يعرفهم فى نفسه ، وقد عرفه الله بهم بعد أن قال له : ﴿لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[1] فقال له تعالى : ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[2] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[3] ولا يجاهد من لا يعرفه ، وجهاد المنافقين بالقرآن ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[4]

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[5] أى يتقون بقولهم آمنا بطش رسول الله والمؤمنين ، فمخادعة الله هى مخادعة رسوله إذ هو مظهره ، وخداعهم خداع لأنفسهم فى نفس الأمر ، فمن فعل خيراً فلنفسه فعله ، ومن أساء إلى أحد أساء إلى نفسه ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[6] فمن قطع يد شخص أو رجله أو فقأ عينه أو قتله فعل ذلك لنفسه ، فإن يده تقطع به ورجله وتفقأ عينه ويقتل ، وكأنه هو القاطع يد نفسه ورجله والفاقئ عينه والقاتل لنفسه هكذا فلا يفعل إلا حسناً ويجتهد فى الإحسان ما استطاع بإفراغ وسعه فيه من جميع الوجوه ، ومن علم أن ما يعمله من سوء له يتباعد عن الشر غاية التباعد ، فقد أبلغ الحق لنا البيان لئلا يكون خيراً إلا ونأتيه ولا شرا إلا ونجتنبه .

(١) التوبة / ١٠١ .
(٢) القتال / ٣٠ .
(٣) التحريم / ٩ .
(٤) الفرقان / ٥٢ .
(٥) البقرة / ٩ .
(٦) الإسراء / ٧ .

وقوله ﴿ وما يشعرون ﴾ أى ولا يحسون بذلك ، أى فضلا عن أن يعلموه فهو أبلغ من نفى العلم ، ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾[1] المرض هو النفاق المانع لقلوبهم من قيام الإيمان بها ، إذ المرض ينافى الصحة .

وقوله ﴿ فزادهم الله مرضاً ﴾ متعلق بقوله (ومن الناس) ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾[2] ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾[3] ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾[4] فهم يتوجعون لذلك ويتألمون غاية الألم بذكر صفاتهم ، ولا يزالون يرتقبون الفضيحة فكلما أُنزلت آية يخافون أن تصرح بأسمائهم وبما فى قلوبهم .

والمرض أيضا يطلق على الزنا كما يطلق على ضد العافية ، قال تعالى ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾[5] أى زنا ، ولو لم يكن منافقاً ، وإن المرأة إذا خضعت بالقول طمع فيها من يريد الزنا بها .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[6] .

(١) البقرة / ١٠ .
(٢) التوبة / ٦١ .
(٣) التوبة / ٧٥ .
(٤) التوبة / ٥٨ .
(٥) الأحزاب / ٣٢ .
(٦) البقرة / ١١ ، ١٢ .

الفساد فى الأرض بإيقاع المعاصى فيها ، وهم لم يُخلقوا إلا للطاعة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] ففى الأرض أبلغ من التعبير على الأرض ، لأن (على) تقتضى السريان فى جميع أجزائها بخلاف (فى) . فالمعصية تمحق بركة الأرض والسماء ، فكلما عمل عليها دست من بركتها التى هى الأرزاق المودعة فيها من منذ قتل قابيل هابيل ، كل ذلك من شرر المعصية ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾[2] . فعل المعاصى يمنع المطر أن ينزل من السماء حتى يهلك بسببه الحرث والنسل ، وبه يحصل الفساد فى الأرض كما ذكرنا ، والمراد بالأرض الأرض التى هم عليها ، لا كل الأرض ، فالفساد فى موضع هو الفساد فى الأرض كلها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾[3] أى الأرض التى عليها عُمل ذلك الفساد ، لا جميع الأرض ، وإلا لكان حين قوله (أو يقتلوا)[4] والمناهى التى إذا ارتكبت يقع بها الفساد

(١) الذاريات / ٥٦ .
(٢) البقرة / ٢٠٥ .
(٣) المائدة / ٣٣ .
(٤) وإلا كان حين قوله ﴿ أو يقتلوا ﴾ إلخ . أراد أن يستدل على أن المراد بالأرض بعضها لقوله تعالى ﴿ أوينفوا من الأرض ﴾ أى من أرض معصيتهم إلى أرض أخرى اهـ مصححه .

معلومة مفصلة كما فى قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾[1] ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾[2] إذا ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ يدَّعون الشفعاء عند الله ، فقالوا عن الأصنام ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾[3] لأنهم بنات الله .

والإنسان إذا أراد حاجة من عظيم توسل فى قضائها إليه بمن هو قريب عنده فنحن مصلحون باتخاذنا الأصنام.

ولا يعلمون أن تعيين الصلاح والفساد لا يعلم إلا من الشرع لامن العقل وقوله ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ فى قولهم ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[4] هو الفساد ، ومن الفساد الحكم بغير ماشرع الله من السياسات ، والقياس بالرأى فيما يفعله من ينتسبون إلى العلم ، ويجعلونه شرعا مع أنه من عند أنفسهم بلاشك ، ولا يردون الحكم إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كما قال الله تعالى : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[5] وبما أمر الله ردوا الأمر إليه وإلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) الإسراء / ٣٢ .
(٢) البقرة / ١٨٨ .
(٣) الزمر / ٣ .
(٤) يونس / ١٨ .
(٥) النساء / ٥٩ .

ألا وقد علم أن الحكم مبين فى كتابه وفى سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مبين لكتاب الله تعالى فما وجد من الأحكام فى الكتاب وجد ، ومالم يوجد فيه أحال به على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1] .

فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلممكلف بالبيان من الله تعالى ، ولا شك أنه وفَّى - أى أدى - بما كلف به فى البيان ، فما من أمر من الأمور إلا وله حكم فى كتاب الله تعالى أو فى سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، علم ذلك من علم وجهل من جهل ، والله يقول ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[2] فما بقى نقص ، فلا معنى للقياس فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : **(تفرقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على اثنتين و سبعين فرقة أخطرها على الدين قوم يقيسون الدين برأيهم فيحلون ماحرم الله ويحرمون ما أحل الله)** رواه الترمذى على شرط الصحيح ، ورجاله رجال ثقات .

(١) النحل / ٤٤ .
(٢) المائدة / ٣ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم **(الحلال ما أحل الله في كتابه ، والحرام ما حرم الله في كتابه ، وما سكت عنه عفا عنه فاقبلوا من الله عافيته)** وحاصله : من أحدث حكما فقد أحدث ربوبيته (إن الحكم إلا لله) فلو طلبوا الأحكام الشرعية لوجدوها ولكن يميلون إلى الهوى ويعبدونه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : **(ماتحت أديم السماء من إله يعبد من دون الله أعظم من هوى يتبع)** .

وقوله : ﴿ ولكن لا يشعرون ﴾ .

لا يقال إذا كانوا لايشعرون فهم معذورون لأن الرسول المكلف بالبيان قد بين لهم ، وبعد البيان لاعذر ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾[1] .

(سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصحابة : ما تقولون إذا سألكم الله عنى ؟ قالوا نقول إنه بلغنا ونصحنا أو كما قالوا .

فرفع يده اليمين إلى السماء وأشار بسبابته إلى فوق ثم نكث بها إلى الأرض وهو يقول اشهد من فوق ومن تحت ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ ﴾[2] والمراد أينما كنت فاشهد) .

(١) النساء / ١٦٥ .

(٢) الأنعام / ٣ .

وكونهم لايشعرون بأنهم مفسدون من الضلال البعيد ، إذ لو شعروا لزاما رجعوا وقد يقع للبعض الشعور والعلم بذلك ولا يرجعون بل يجحدون الحق : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[1] فقوله ﴿ ظلما وعلوا ﴾ راجع إلى قوله ﴿ وجحدوا بها ﴾ لا إلى ﴿ واستيقنتها ﴾ وحاصله أنهم فريقان : فريق لا يشعرون ، وفريق يعلمون ، وليس فيهم من العلم إلا إقامة الحجة عليهم ، وأما الذين يشعرون بأنهم ليسوا على الحق فلا خير إلا فيمن عرف الحق وانقاد له .

قال الشاذلي رضى الله تعالى عنه :

(من عرف الحق وتواضع لأهله فهو من أهل الجنة وإن عمل ما عمل من الشر ، ومن أنكر الحق ولم يتواضع لأهله فهو من أهل النار وإن عمل ما عمل من الخير) .

كان عندنا بفاس رجل من أرباب الدولة حاكم وهناك شجر الزيتون كثير جدا غوبا غوبا ، فإذا أخذ أربابه ثمره دخله الفقراء فالتقطوا مايجدونه من البقايا التى فيه ليتمتعوا بها ، فجعل الحاكم بعض عسكره يؤنونهم بأخذ ما التقطوه ، فمررنا ذات يوم بهم فإذا هم يأخذون من الفقراء ما عندهم ، فقلنا ما هذا ؟ فقال لنا بعض الإخوان : هؤلاء العساكر يأخذون من الفقراء ما

(١) النمل / ١٤ .

يلتقطونه بأمر الحاكم ، فبعثت واحداً من الإخوان ، وقلت له : قل له يقول لك واحد - ولا تسمنى له - اترك هذا للفقراء والله يعوضك أحسن منه ، فراح إليه وبلغه ذلك فقال له : إن إرباب البساتين هم الذين اشتكوا منهم، ولكن لما قلت لى إذاً لك مرحبا أنا أتركهم من أجله ، وأصحاب البساتين ما شاءوا يصنعون ، والحال أنه تدخل عليه من أجل ذلك منافع آلاف .

فتركها كل ذلك من حسن العقيدة ثم بعد مدة دعا الحاكم ذلك الرجل من إخواننا الذى أرسلته إليه فقال له : بلغ رسالتى كما بلغتنى الرسالة فقال له : مرحباً وقال له : قل له مقصوده أن السلطان يوليه على البرية الفلانية من البرارى وفيها منافع كثيرة.

فجاء وبلغنى ذلك فقلت له مرحبا ، فبعد أيام ولاه السلطان بغير تسبب منه ولاشىء ، فهو وأمثاله ينالون باعتقادهم فى أهل الحق مطالب كثيرة وينجون بهم من شرور كثيرة دنيوية وأخروية .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

قال ﴿الناس﴾ ولم يقل ﴿العقلاء﴾ رتبة عظيمة شريفة لا يماثلها شىء ، لذلك أطلقت على بنى آدم ، قال تعالى ﴿أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾[2] والمراد بالناس الصحابة والنبى صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) البقرة / ١٣ .

(٢) البقرة / ١٩٩ .

أورد عليه أن إيمان النبى صلى الله عليه وآله وسلم لا يقدر أحد أن يأتى بمثله فما التشبيه ؟ .

والجواب أن المراد الإيمان الذى ذكره النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى قوله (بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ...) وهو الذى علمه جبريل للصحابة حين جاء فى صورة المتعلم الإسلام والإيمان والإحسان ، وأما إيمان النبى صلى الله عليه وآله وسلم فليس للرسل عليهم السلام إليه سبيل فضلا عن غيرهم ، فالرسل يعجزون فضلا عن غيرهم عن اللحوق به صلى الله عليه وآله وسلم ، فإيمانه وأحواله اختصاص من الله تعالى ، له النبوة وآدم منجدل فى طينته ، فلا يعرف أحد حقيقة الرسول على ما هو عليه كما قال صلى الله عليه وآله وسلم (وأنه لا يعرف حقيقتى غير ربى) .

كنا مع بعض الأولياء رضى الله تعالى عنهم الذين يجتمعون بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم فتكلم معى فى مشاهدته صلى الله عليه وآله وسلم فقلت : مشاهدة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هذه التى يشهدها الأولياء أراها كمنزلة الظل من الشخص فالظل بالنسبة إلى الشخص كلا شىء .

قال أويس القرنى رضى الله تعالى عنه للصحابة وفيهم سيدنا علىّ وسيدنا عمر رضى تعالى الله عنهما : هل رأيتم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قالوا له : ألسنا أصحابه قال : إنما رأيتموه كالسيف فى غمده .

وهم كذلك رأوه كالسيف فى غمده ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[1] فالنظر لا يقتضى الإبصار ، فأنت ترى الصبى ولاتبصر زيادته التى يزيد بها مع أنه فى زيادة بلا شك من جميع الجهات طولا وعرضاً ، ولكن لما كانت الزيادة لطيفة كانت لا تبصر فإذا غبت عنه مدة ثم حضرت عنده وجدته كبيراً فحينئذ تبصر الزيادة .

وكذلك إنبات النبات اللين لاتبصر زيادته مع أنه فى زيادة بلا شك ، وبعض النباتات فى ليلة واحدة إذا فارقتها ثم رجعت إليها وجدتها زادت كثيراً .

تنبيه : هذا دليل صريح فى وجوب التقليد يرد على المتكلمين القول بعدم التقليد مع أنهم هم فى الحقيقة مقلدون ليس فى يديهم غير التقليد فإنهم يقررون أقوال من قبلهم فى التوحيد وقواعده .

ومازادوا فى تقريرها إلا أن تحفظ عنهم ويقتدى فيها وهذا هو التقليد ، فهم ينفون التقليد بالتقليد فيغسلون الدم بالدم وغسل النجاسة بالنجاسة لا يزيدها إلا انتشاراً ، وتأكيداً فهم مقلدون وهم لا يشعرون .

وقوله تعالى ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ تجلت لهم سفاهتهم فى غيرهم فهم يشهدون وصفهم يحسبون أنه وصف غيرهم .

---

(١) الأعراف / ١٩٨ .

قال بعض الصوفية : **لصفاء إخواننا رأوا وجوههم فينا** .

ومثلهم كمثل الراكب السفينة بجانب الساحل هى تجرى به وهو يرى البر هو الذى يجرى ، فجريه هو يراه فى غيره ، فرآه معكوساً وهو يعلم يقينا أن البر لا يجرى ولا تجرى الأشجار التى فيه وإنما تجرى السفينة .

والسفيه هو الذى لا يحسن التصرف ، والسفيه هو الجاهل ، ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[1] أى جهلها فلذلك جهل ربه فرغب عن سبيله ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه .

وقوله تعالى ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ تبيين من الله تعالى لحقيقة الحال بأنهم إنما انعكس عليهم الأمر فرأوا الضلال الذى فيهم فى غيرهم .

وقوله ﴿هم﴾ تأكيد أى لاغيرهم ، وقوله تعالى ﴿ولكن لا يعلمون﴾ نوَّع لأنهم نوعان ، نوع لا يشعرون بشىء ونوع يشعرون شعوراً لا يبلغهم إلى العلم وهم المرتابون فلم يكتف بـ ﴿لا يشعرون﴾ لذلك .

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾[2] .

---

(١) البقرة / ١٣٠ .

(٢) البقرة / ١٤ .

عبر بـ ﴿ لَقُوا ﴾ فى (الذين آمنوا) عن (خلوا) بهم للقيهم فى الملأ وفى المنافقين ﴿ وَإِذَا خَلَوْا ﴾ إلى أنهم لا يظهرون بذلك فى الملأ تقية بل فى الخلوة .

وقوله تعالى ﴿ إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ ﴾ عبر بـ **(إلى)** لأنهم يمشون إليهم بالقصد وسماهم شياطين والشيطان البعيد ، تقول العرب ناقة شيطانة إذا كانت لا تألف الإبل ، وإضافتهم إليهم لأنهم من جنسهم إذ المراد شياطين الإنس .

وقوله تعالى ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ أى بقلوبهم والمعول على القلب، وقوله تعالى ﴿ قَالُوا آمَنَّا ﴾ أى بلسانهم .

وقوله تعالى : ﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾[1] ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[3] لأن مراد الله فيهم الضلال .

(سؤال) من أيقن بقلبه ولم يقر بلسانه هل ينفعه ذلك ؟

والجواب : لا ينفعه ذلك لقول الله تعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[4] ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[5] فـ **(ظلماً وعلواً)** راجع لقوله **(وجحدوا بها)**

(١) الطور / ١٤ : ١٦ .
(٢) الدخان / ٤٩ .
(٣) البقرة / ١٥ .
(٤) الأنعام / ٣٣ .
(٥) النحل / ١٤ .

فمن لم يجهر بالتوحيد بأن صدق بقلبه أن هذا الدين حق وكفر بلسانه فأبى الإسلام لا يُقبل عند الله ، و ذلك كقول أبى طالب :

ولقد علمت بأن دين محمد * من خير أديان البرية دينا .

قال تعالى ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾[1] .

اشترى هنا ليس فيه صفة إيجاب وقبول حيث علم الثمن والمثمن ، وهذا دليل على أن الإيجاب والقبول لا يشترطان فى البيع بل المعاطاة ، قوله ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴾ أى خسرت ، وقوله ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ حالا ولا مآلاً لعلم الله فيهم ذلك وهو رد على ما تدعيه أنفسهم من أنهم مهتدون .

ثم قال ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾[2] .

الضمير فى ﴿ مَثَلُهُمْ ﴾ عائد إلى ﴿ ومن الناس ﴾ بواسطة عوده إلى ﴿ الذين اشتروا ﴾ أى صفتهم كصفة الذى استوقد ناراً ، فالكاف تشبيه وليست بزائدة ، فالمثل يأتى بمعنى الصفة كقوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾[3] أى الصفة العليا ويأتى بمعنى التمثيل ، كقوله تعالى ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا ﴾[4] ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾[5] .

(١) البقرة / ١٦ .
(٢) البقرة / ١٧ .
(٣) النحل / ٦٠ .
(٤) الكهف / ٣٢ .
(٥) الزخرف / ٥٧ .

والضرب الفرض والتقدير وقوله ﴿الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ لم يقل الذين بصيغة الجمع لأن المنافقين يتداخلون فى بعضهم فهم ذات واحدة ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾[1] ، وإنما المؤمنون قال فيهم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[2] والولى الناصر فلا يرى خيراً إلا ويجلبه لوليه ولا شراً إلا ويدفعه فالمؤمن كثير بأخيه.

وقوله ﴿اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ السين والتاء للطلب أى عالج اتقادها وذلك كقوله تعالى ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[3] .

منهم : يعرفونه فى منامهم ، أو الآيات فى قوله ﴿ومن الناس﴾ فى أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم حتى إنهم يعرفون يوم مولده ومماته صلى الله عليه وآله وسلم .

كان سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه - يخدم واحداً من أحبارهم .

فلما قرب زمن الوفاة قال له : إنى قد خدمتك كذا عاما ولى عليك حق فأوصنى من أصحب بعدك ؟ فقال له اصحب فلانا وأشار عليه بحبر فجاء إليه فخدمه كذلك فلما قربت منه الوفاة قال له إنى خدمتك كذا عاماً ولى عليك حق فأوصنى من أصحب

(١) التوبة / ٦٧ .
(٢) التوبة / ٧١ .
(٣) البقرة / ٨٩

بعدك؟ فقال له بعد هذا حكم كتابنا باطل (يخرج نبى آخر الزمان بمكة ويهاجر إلى المدينة فاتبعه) فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاء فصحبه وهو الذى أدى عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتابته لما قال له مالكه لا أعتقك أو تغرس نخلا حتى يثمر وتؤدى من ثمره فجاء فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له قل له خيراً وجاء مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فغرس بيده الشريفة فأثمرت من عامها فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوجدها مثمرة كلها إلا واحدة فقال ما بال هذه ؟

فقال عمر رضى الله تعالى عنه وأرضاه: هذه غرستها أنا يارسول الله فأخذها بيده الشريفة وحركها يميناً وشمالاً وتركها فلحقت بأخواتها - فى البخارى أن المغروس ورد وفى غيره نخل وهو أبلغ فى المعجزة فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبله بريقه الشريف ويدفنه فأثمر من عامه .

ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان بعض الصحابة عند واحد من علماء أهل الكتاب فقال له : اليوم توفى نبيكم قال : فغضبت غضباً شديداً ما غضبت مثله حتى لو كان بيدى سلاح لقتلته فمكثت أياماً فاذا برسول أبى بكر الصديق يأتى بكتابه مخبراً أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد

اشتاق إلى لقاء ربه فقدم عليه ، فاستخلف الناس من بعده أبا بكر رضى الله تعالى عنه . فكانت وفاته فى ذلك اليوم الذى ذكره الكتابى .

وقوله ﴿نَارًا﴾ ليستضىء بها وقوله ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ ذلك ظهور النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى مكة لأهل الكتاب فى المدينة ومكة حول المدينة كما أن المدينة حول مكة ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[1] وقوله ﴿أَضَاءَتْ﴾ أبلغ من أنارت لأن الضياء هو الذى يكشف عن حقائقها فلذلك قال الله تعالى ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾[2] إذ هو أضعف من الضياء لكونه ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾[3] وأنها ضياء نور لأن الضياء نور وزيادة فهى ضوء ونور.

وقد قال الله تعالى فى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ﴿سِرَاجًا مُنِيرًا﴾[4] والسراج هو الشمس أى شمسا منيرة وقوله تعالى ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أى نور إيمانهم الذى كانوا يبصرون به النور الإلهى الذى فى التوراة ، وهو ثبوت صفته صلى الله عليه وآله وسلم ، وكل مافى التوراة نور لأنه كلام الله ، وكلامه نور إذ

(١) الشورى / ٧ .
(٢) يونس / ٥ .
(٣) الإسراء / ١٢ .
(٤) الأحزاب / ٤٦ .

هو صفته ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾[1] وجمع الضمير ولم يقل بنوره لئلا يُتَوهَم عود الضمير على الله وهو إذا ذهب نوره لأحد لا يذهب منه ولا يسلبه إياه ؛ إذ نوره هو وهو لا يتصرف فى نفسه ، فالذين لم يهتدوا لم يجعل لهم نوراً من أصله حتى يُأخذه منهم فنور الله لا يُهدى لكافر وقوله ﴿فى ظلمات ..﴾ إذ الكفر بالرسول والكفر بجميع الرسل أو الرسل كلهم وبالملائكة و الكتاب واليوم الآخر فكيف بسيدهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فالكفر بواحد ظلمة ، فهى ظلمات بعضها فوق بعض ، وعبَّر بـ **(فى)** لأنهم غارقون فيها لم يخرجوا منها وتركهم فيها .

ولما كانت الظلمة متفاوتة : خفيفة وهى التى يكون معها بعض إبصار ، و حالكة لا يمكن الإبصار فيها . أكَّد الظلمات فقال ﴿لايبصرون﴾ أى لشدتها لا يبصرون ، وليس مستغنى عنه بما قبله، ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[2] صم عن سماع صفات النبى صلى الله عليه وآله وسلم بعد ظهوره مع أنهم كانوا قبل ذلك يستمعونها . فهو ﴿النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾[3]. وقوله ﴿بُكْمٌ﴾ لا ينطقون بها ، وقوله ﴿عُمْيٌ﴾ فلا يبصرونها كما كانوا يطالعونها قبل ، وقوله ﴿فَهُمْ لَا

(١) المائدة / ٤٤ .
(٢) البقرة / ١٨ .
(٣) الأعراف / ١٥٧ .

يَرْجِعُونَ﴾ إلى الأوصاف النبوية التى شردوا عنها وهى العلم الصحيح فهو أبلغ من (لا يعقلون) .

استشكل بأن بعضهم كابن سلام . وأجيب بأنه من المعينين من الله بلا يرجعون فأرجعه وإن كان الكلام عاماً فالمقصود به معلوم ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[1] المعينون بالذات بالهداية فتخصصهم وحدهم وإن شمل الخطاب غيرهم فيفهمهم الله وغيرهم يصرفه بالشبهات ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾[2] فالجاهل مراد الله منه ألا يعلم وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ،

فإن قيل مافائدة ضربها لهم فى أنهم لا ينتفعون بها فالجواب أنها لإقامة الحجة عليهم ، ومعنى أنهم يعلمونها أى بالتخلق بها ؟ والتحقق وهى رجوع إلى قوله ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾[3] فبيت العنكبوت لا يقيها من حر ولا برد ، وهو ضعيف جداً إذا جاءته أدنى ريح ذهبت به ، فالأصنام كذلك .

فالعالمون الذين فهموا عن الله ذلك وعملوا بمقتضاه فلم يتخذوا من دون الله أنداداً ، فمن اعتمد على غير الله من مال

(١) العنكبوت / ٤٣ .
(٢) البقرة / ٢٦ .
(٣) العنكبوت / ٤١ .

وعمل وعلم وحرفة فقد اتخذ من دون الله أنداداً، قال إبراهيم عليه السلام ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[1] أصنام الخلق أراد ، وهى خطرات غير الله ، وكل مقام له أصنام ، وحاشا أن يخطر فى قلب الخليل غير الله ، وإنما هو اتهام نفسى وفرض تقديرى والمفروض ليس واقعا فى نفس الأمر فلا إشكال .

رأى بعض الأولياء فى عصرنا هذا نبى الله سيدنا يوسف عليه السلام فقال له : حكى الله عنك فى كتابه أنك قلت للرسول ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[2] ولم تستعجل بالخروج من السجن مع أنك لبثت فى السجن بضع سنين ، ونبينا صلى الله عليه وآله وسلم قال : لو كنت مكان يوسف لأجبت الداعى . أى ولم أصبر، فقال له إن بين الواقع والفرض كما بين السماء والأرض .

ومعناه أنه يقول إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يقع له ذلك بالفعل فإن الناس كلهم يعتقدون براءته فلم يحتج إلى ذلك وأنا ذقت مرارة التهمة فأردت أن تظهر براءتي .

ثم قال ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[3] هذا مثل لصفتهم مع القرآن ، والأول مثل

(١) إبراهيم / ٣٥ .
(٢) يوسف / ٥٠ .
(٣) البقرة / ١٩ .

لصفتهم مع النبى صلى اللّه عليه وآله وسلم الذى أنزل عليه ذلك القرآن فلا بلاغة لأحدهما على الآخر فكل واحد لمحله ، فصفتهم منقسمة إلى قسمين فـ (أو) للتقسيم .

وقوله ﴿كَصَيِّبٍ﴾ الصيِّب : المطر ، والمطر هو الرحمة والكتاب أفاضنا رحمة ، والصيِّب من الإصابة وكلاهما نزل من السماء فلذلك عدل عن غيث ومطر ونحوهما .

وقوله ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ المراد بالسماء ماعلا ظله وارتفع بعد ماعلا وإن كان ارتفع على كل حال معطوف على ماعلا وإنما لأجل طول الفصل فيكون التفريع عليهما ، فلذلك شمل السماء وماتحتها والسحاب مسخرا مابين السماء والأرض ، والتنصيص على السماء لدفع ما يكون على خلاف العادة «فيما يحمل فيه بالدواليب» لأن الكفار كانوا بأسرهم يتخذون دواليبا يجتلبون بها ماءً إلى مجالسهم فتمطر عليهم فلا يقال الصيِّب لا يكون إلا من السماء .

وقوله تعالى ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ ولم يقل ظلمة فيها صيب لأن المشبه به الذى هو القرآن نَوَّرَ الظلمة ، وإنما الظلمة فيه وهى ذم الكفر ، وجمع الظلمات ولم يقل ظلمة لأنها أنواع الكفر كالنفاق والشرك والمعاصى وكل واحد ذمه الحق على حدته .

وقوله ﴿وَرَعْدٌ﴾ هو الوعيد وهو مفزع وإنما كانوا يفزعون لأنهم يعلمون أن رسول صلى اللّه عليه وآله وسلم رسول حق ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[1] والرعد : الملك الموكل بالسحاب ، كان صلى اللّه عليه وآله وسلم إذا سمع الرعد يقول (سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكه حول العرش من خيفته) والمسمى هو الملك ويطلق على صوته ، وهو مثل الداعى للسحاب يزجرها فتنضم كالراعى إذا تفرقت الغنم زجرها لتنضم، ثم بأمره يتراكم بعضه فوق بعض ليحمل ماء كثيرا ثم يجعله رُكاماً .

وأفرد الرعد للتخفيف عليهم لأنهم ضعاف يكفيهم رعد واحد فهو من الرحمة لأن الحق يرحم عباده ولو كانوا كفارا .

(وبرق) صفة النبى صلى اللّه عليه وآله وسلم لأن أحواله صلى اللّه عليه وآله وسلم المبينة فى كتابنا لوضوحها عندهم أحالهم فيها على ماعندهم فقال ﴿النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾[2] وقال اللّه تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ - الخ﴾[3] ولكن لما كانت لا تثبت فى قلوبهم شبهها بالبرق فى سرعة الزوال . والبرق لمعان سوط الملك .

---

(١) الأنعام / ٣٣ .

(٢) الأعراف / ١٥٧ .

(٣) الفتح / ٢٩ .

وقوله تعالى ﴿يجعلون أصابعهم﴾ استئناف من تمام المعنى وجمع الأصابع لأن كل واحد يجعل أصبعه فى أذنه ولا يكتفى بجعل أخيه ، فإن قيل : إن جعل الأصبع فى الأذن يعرفون أنه لا يبقى مدة من الزمن فما فائدته ؟ . فالجواب أنها حركة يستعملونها وأنها تندفع لدفع الوهم الذى يدخل عليهم من الرعد ، فالغريق يتعلق بما لا ينجيه .

وقوله ﴿من الصواعق﴾ قراءة تقديم القاف على العين من الصواقع : كقراءة قوله تعالى ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[1] بهذا يوم صعيب والصواعق الوعيد بالعقوبة العاجلة كقوله تعالى ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2] .

وقوله ﴿حذر الموت﴾ الحقيقى فإنهم كانوا لم يطمئنوا أن يقاتلهم الرسول ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ - إلى قوله ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾[3] .

وقوله ﴿والله محيط بالكافرين﴾ أى هم فى القبضة ، وقدّمه ليدل على أن عقوبته لهم غير مؤخرة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[4] ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾[5] ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾[6] وعدل عن قوله بالمنافقين إلى قوله

(١) هود / ٧٧ .
(٢) النحل / ٤٥ .
(٣) التوبة / ٢٩ .
(٤) الفجر / ١٤ .
(٥) الأنفال / ٥٩ .
(٦) العنكبوت / ٤ .

- بالكافرين - لأنهم على تحقيق بالنبى وكفروا ، وكل منافق كافر ، والمراد تهديد الكفار لا خصوص المنافقين .

وقوله تعالى ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾[1] أى يكاد ماعلموه من البيان الذى فى القرآن الموافق لما عندهم أن يميلهم إلى الإيمان بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم فيكادون أن يؤمنوا بكثرة ثبات صفات النبى عندهم و (يخطف) بقراءة كسر الطاء وفتحها .

وقوله ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ تأملوا كلما ظهرت لهم صفة النبى صلى الله عليه وآله وسلم مشوا فيه وكادوا أن يؤمنوا ، ولم يقل سعوا لأن السعى المشى بسرعة وهم لم يسبقوا ؛ إذ لو سبقوا لآمنوا .

قال تعالى : ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن هاج عليهم داء الحسد ﴿قَامُوا﴾ بقوا قائمين لأنهم كانوا ماشين والماشى قائم ، فالمعنى وقفوا عن المشى الذى هو التأمل يخافون أن يوقعهم فى الإيمان فتزول مناصبهم ورياستهم ؛ لأنهم كانوا علماء يعلمون الناس وأصبحوا متعلمين دينا جديداً فيصيرون أذنابا بعد أن كانوا رؤساء .

«المعنى» إذا قام فيهم قائم الحسد أظلمت فهم لا يبصرون ، وقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أفرد السمع

(١) البقرة / ٢٠ .

وجمع الأبصار لأن السمع لم يجمعوه من جميع الوجوه فى أمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم كما جمعوا الأبصار بالتبصر فى أمره بمطالعة صفته فى كتبهم ، فبذلوا الجهد فى الاطلاع على أوصافه ولم يبذلوه فى سماع الحق منه ، ومعناه لو شاء لعجل لهم العقوبة فأصمهم وأعمى أبصارهم الحسية كما أصمهم وأعمى أبصارهم المعنوية فلم ينتفعوا بما سمعوا وأبصروا كما قال ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾[1] .

وكمن سبق فى علمه تأخيرهم فأخرهم ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا ﴾[2] ألزموا به فى الدنيا والمراد بالكلمة الأجل المسمى إنه على كل شىء قدير والتسمية من الثبوت والوجود .

والمراد به كُلُّ ممكن ، أى إذا شاء تعجيل العقوبة لهم فهو قادر وتأخيرهم ليس بنافع لهم ، فالتقديم والتأخير كله واحد ، قال عزَّ وجل ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾[3] .

سؤال أول :

وجد فى بعض التفاسير أن لفظة قدير خاصة بالحق وأن قادر هو الذى يطلق على الخالق والمخلوق ؟

---

(١) الأعراف / ١٧٩ .
(٢) طه / ١٢٩ .
(٣) البقرة / ٩٦ .

والجواب : لا دليل على ذلك من الشرع فلا حجة إلا بنص ، ولا يلزم شىء فى ذلك ؛ إذ جميع الصفات المطلقة على العباد إنما هى آثار خالقهم فيهم وأوصافه أمدهم بها فهم آلة لظهور أفعاله ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾[1] فأخبر أنه هو الفاعل بأيدينا فتأمل ...

سؤال ثانى :

هل ما يقدره المفسرون من كتاب الله أم لا ؟

وجوابه : ان كان أمراً محتاجا إليه فى استقامة الكلام العربى كحذف الخبر والمضاف والضمير المستتر ونحو ذلك مما يدل عليه القرآن فمن كلام الله ؛ لأن الحق يحيل العرب على لغتهم المعهودة عندهم ويخاطبهم بلسانه كقوله ﴿ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾[2] .

فـ (ما شاء) خبر أى هذا ماشاء الله فحذف المبتدأ ، أو كقوله فى قصة إبراهيم عليه السلام ﴿ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾[3] أى هذا قولى فحذف الخبر وعنى بكبيرهم ، الله جل جلاله أى الاله الكبير وهو صادق ؛ لأن الأصنام لو نطقت لقالت هو الله الذى كسرنا بيدى إبراهيم وكقوله ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾[4] أى أهل الكوثر فحذف المضاف .

---

(١) التوبة / ١٤ .
(٢) الكهف / ٣٩ .
(٣) الأنبياء / ٦٣ .
(٤) الكوثر / ١ .

وأمَّا إن كان التقدير مما ليس كذلك بحيث يمكن الاستغناء عنه بوجه من الوجوه فليس ذلك المقدر من كلام الله، فإن كلام الله هو الذى قدره على قانون العرب لا الذى يقدره غيره بحسب فهمه ، فكلام البارى غنى عن التقدير ؛ إذ كلام الغير غيره فلا يقدر له لأجل أن يبين إذ هو الذى يبين المقدرات لا المقدرات بينته ، فإن لم تفهم المقدر إلا من المذكور وهو عين البيان فلا يحتاج إلى بيان ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾[1] ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[2] .

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3] ناداهم بـ (يا) التى هى للنداء على رأس البعد لغفلتهم لأن من كان بجانبك إذا كان غير غافل فلا تناديه بيا فلان ، بل تقول فلان فلان بغير أداة ، فإن لم يسمع قلت يافلان ، والحق قريب من الخلق ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[4] ولكن لما كانوا غائبين عنه بالغفلة بعدوا فالغيبة منهم عن الله تعالى وهو لايغيب عنه شيء .

وقوله تعالى ﴿النَّاسُ﴾ لم يقل بنى آدم ليشمل كل واحد وإلا لم تقم حجة ، ولأن (بنى آدم) فيها تشريف لأصنافهم لنسبتهم إلى خليفة الله.

(١) آل عمران / ١٢٨ .
(٢) النحل / ٨٩ .
(٣) البقرة / ٢١ .
(٤) ق / ١٦ .

والمراد بهذا الأمر لا التشريف ، وقال ذلك فى غير هذا الموضع لينبههم أن أصلهم طيب ، وأنهم أبناء أستاذ الملائكة ، أى ينبغى لكم أن تلاحظوا أهلكم ، ولو قال الذين آمنوا لم تقم حجة على غيرهم لكونهم غير مدعوين فالدعوة عامة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾[1] أى يدعو العباد كلهم ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فمن لم يجب قامت عليه الحجة لكونه مدعواً ، فالعباد كلهم مدعوون بخطاب واحد والمقصودون بالذات هم الذين يجيبون من بين الخلق كلهم بفهمهم الحق بتجاوز الكلام أسماعهم إلى قلوبهم ، وغيرهم لا يتجاوز سمعهم ، وقوله ﴿اعبدوا﴾ لأن العبادة عين الذل ولا أذل من العبد يضع جبهته لسجدة فى الأرض التى سماها الحق بالذلول ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا﴾[2] ولم يقل آمنوا لأن العبادة لازمة للإيمان ، ولو عبر بالإيمان لأوهم أن العبادة غير مقصودة وأمرهم بها لإقامة الحجة ، والخطاب بـ (اعبدوا) الموجودة عنده فى علمه سواء أوجدت فى علمنا أو لم توجد ، فهو عام يشمل من لم يوجد من الناس ، وهو سبحانه بعض المرات يفرد المعدوم بالخطاب ويخاطب الصور الثابتة فى علمه يقول لها كن فيكون ، فهو يخاطب المعدوم ويعطيه على السماع والذى سيوجد ، فالمعدوم الذى قد يكون ثابتا فى علم الله فيأتى على ذلك الوفق سواء بسواء ، فليس معدوما إلا عند نفسه وعندنا .

(١) يونس / ٢٥ .
(٢) الملك / ١٥ .

والعبودية و العبادة فعل العبد الطاعات ، والعبودية الإخلاص فيها لوجه اللّه و فعل الأمر باللّه لا بنفسه .

وقوله ﴿اعبدوا﴾ يشمل الجميع - العالى والأعلى والدون ، فكلٌ فَهِمَ المقصود فى مقامه ، وقد علم كل الناس مشربهم فالقرآن مرآة كل أحد يرى نفسه فيه .

وقوله تعالى ﴿ربكم﴾ بين المعبود ، يقول إياكم أن تعبدوا الهوى وتخرجوا عن عبوديتكم إلى عبادة الهوى الشامل لجميع الأصنام والرب : المربى والمصلح ، ولم يقل اعبدوا اللّه لأن اللّه اسم جامع لأسماء اللطف وأسماء القهر فأتى بالرب ليجرد أسماء اللطف ، ويستعطفنا بذلك ، ويذكرنا بالنعمة علينا وليستجلبنا بالرب والتخصيص بالإضافة للتشريف ، أى رب الأمين وغيرهم الذى خلق لهم كل شيء ، وربكم أبلغ من رب العالمين ، فإنه لو قال العالمين صرتم غير مقصودين بالذات بل دخلوا من جملة العالمين ولما فيه من الاتصال بخلاف العالمين . لأن الإضافة هنا متصلة فجعلنا بجواره وهو قد أوصانا على الجار فأولى هو بذلك وهو أكرم الأكرمين .

وقوله ﴿الذى خلقكم﴾ أى لا الأرباب التى اتخذتموها من شمس وقمر ونجوم وأحجار وغيرها بأهوائكم فإن هذه لا منة لها عليكم بخالقية بل بعضها لكم المنة أنتم عليها لكونكم صنعتموها .

وحقيقة الخلق ما يكون بالتدريج والنقل من طور إلى طور كالنطفة كانت مفرقة فى الأغذية فجمعها ثم تكون علقة ثم مضغة إلى أن تستوى بشرا . وإلا مما يقول له كن فيكون .

فالجسم من عالم الخلق ، والروح من عالم الأمر فجمعتم الأمرين ، فلذلك صحت الخلافة عن اللّه بخلاف الملائكة فليس لهم إلا عالم الأمر .

فالملك روح إلهى نورانى ركب فيه عقل يعقل به عن اللّه ولا جسم له ، بل ذلك الروح هو عين ذاته ، والإنسان له جسم ليسكن فيه الروح ، والفرق بين الإنسان ومطلق الحيوان كون الإنسان مخلوقا له كل شيء ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[1] وإلا فالحيوانات تعقل عن اللّه ولها أرواح مدبرة لأجسامها . وقوله ﴿والذين من قبلكم﴾ إلى أصولكم آدم فمن دونه الأرض والماء الذى قبل الأرض ، وذكرنا لذلك وعده علينا إنعاماً لأنه سبب فى إيجادنا ؛ إذ الوالد سبب لايجاد الولد ، فالذين من قبلنا من تمام إيجادنا بلا شك .

وقوله ﴿لعلكم تتقون﴾ راجع إلى قوله ﴿اعبدوا﴾ أي اعملوا لطاعته لعلكم تصيرون أتقياء والتقى يحبه اللّه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[2] ومعنى تتقون تتصلون بى اتصالاً لا انقطاع فيه ، وهو معنى الحديث :

(ما تقرب إلىَّ عبدى بشيء أحب إلىَّ من أداء ما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى

(١) الجاثية / ١٣ .

(٢) التوبة / ٤ .

يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها) وفى بعض الروايات (وفؤاده الذى يعقل به) وفى رواية (فإذا أحببته كنته) .

ومعنى (لعل) الترجى على بابها ، لأنه ليس كل من عبد حصلت له التقوى الموجبة محبة الله ، هذا فهى بالنظر للبعض ترجى وإن تحقق المعنى فى البعض المعنى فى علمه سبحانه لئلا يعتمد أحد على عبادته .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1] .

وقوله ﴿ الذى جعل لكم الأرض ﴾ أورده بعد قوله ﴿ الذين من قبلكم ﴾ فإن كانت الأرض من جملة من قبلنا فهو من باب إيراد التفصيل بعد الإجمال ، وجعله عقب ﴿ تتقون ﴾ ليشير إلى أنكم إذا اتقيتموه وصار سمعكم وبصركم كما يليق بجلاله عرفتم نوقا تفصيل ﴿ جعل لكم الأرض فراشا ﴾ وما بعده.

ونكتة التفصيل بجعل هنا دون خلق لأن الأرض كلها لم يخلقها فراشا بل منها مالا يصلح للفراش كبعض الحجارة فالمراد ذللها ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً ﴾[2] والجعل : التصيير فجعل الأرض

(١) البقرة / ٢٢ .

(٢) الملك / ١٥ .

فراشا من كمال النعم ، فلو جعل الجميع فراشا ما عرفنا قدره ، فإن الإنسان إذا طلع العقاب الصعبة عرف نعمة الأرض المبسوطة وبضدها تتميز الأشياء.

وهذا الفراش لا يحتاج إلى طى ويظهر كل يوم ولا يبلى ولا يحتاج إلى شراء ، ولا يعرف قدر الأرض على الحقيقة إلا من ركب البحر فإذا ركبه وحصل له ما حصل من الميل والدوخة وحصل له مرض بلا مرض فضلا عن أهوال الريح الشديد ونحوه عرف قدر الأرض .

ركب شيخنا سيدى عبد الوهاب التازى البحر أربعين يوما ، فسئل : كم ركبت البحر قال : أربعين عاما ، جعل كل يوم عاما ، وكان رضى الله تعالى عنه يقول : (ليس فى البحر شىء طيب إلا واحدة : تعلق القلب بالله وحده) ولقد صدق فإن الإنسان يحصل له تقطيع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى حتى إن السلطان إذا كان معك فى البحر لا تعتمد عليه بل هو خائف مثلك مضطرب ، فالبحر وإن كان ركوبه فيه أهوال فالابتلاء الذى يجرى النعم حسن ، فنعم الابتلاء الذى يجرى التوحيد الخالص ، فراكب البحر آمن الشرك ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[1] . سواء نجاهم حقيقة أو أرسل لهم الريح التى يسيرون بها غير

(١) العنكبوت / ٦٥ .

الشديدة فإنهم يشركون ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾[1].

لكونهم فرحوا بالريح لا بموجدها ، كأنما جاءتهم من عند نفسها ، فلذلك عاقبهم فأرسل ريحا عاصفة ، فأصل الضلال هو الفرح بغير الله﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[2] فالحق هو الله ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾[3].

وعبر هنا بفراشا ، وفى آخر بمهادا ، وفى آخر بذلولا، والمعنى واحد منوع العبارة.

قدم الأرض على السماء لأنها الفراش وهو الأساس فقدم على السقف وهو المراد بقوله ﴿والسماء بناء﴾ أي سقفا محفوظا والمراد بالسماء هنا أجرام السماوات حقيقة إذ هى المبنية ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾[4] فلا يقال ما علا حتى يدخل فى ذلك الهواء إذ لا يعرف أنه مبنى .

والمراد بالسماء ما قامت بنفسها بلا قاع ولونها نعمة ، والسماء يذكرها الحق فى كتابه تارة بالإفراد وتارة بالجمع ولم يذكر الأرض إلا بالإفراد إشارة للتوحيد وإلى أن الخليفة مخلوق

(١) يونس / ٢٢ .
(٢) غافر / ٧٤ ، ٧٥ .
(٣) يونس / ٣٢ .
(٤) الذاريات / ٤٧ .

منها ، وحقيقة التوحيد فيه ، يوحى بذلك إلى أن الخليفة إذا لم تكن حقيقة التوحيد فيه لا فائدة فى خلافته ، ولولا أن آدم قائمة به حقيقة التوحيد ما صح أن يكون معلما للملائكة ؛ إذ المعلم لا يجهل ما يعلمه وهو ما علمهم إلا الأسماء الإلهية بالحقيقة لأن المسميات هذه كلها آيات على الموجد الواحد.

وفى كل شىء له آيةٌ تدل على أنه الواحدُ

قدم الأرض على السماء لأمرين :

الأول : لأن السقف لا يصح إلا بعد الأساس .

الثانى : لأن السماء أصلها الأرض لأنها خلقت من الدخان الذى هو البخار الصاعد من الأرض فهى نبتها ، فهذا القصر الذى فراشه الأرض وسقفه السماء خلقه الحق لنا ، ورفع سمك السماء لأن السقف كلما ارتفع وبعد عن الرأس كان أجلب للهواء النافع وأصلح للبدن لئلا تنعكس عليه الأبخرة فتؤذيه ، فلذلك قال الله ﴿ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾[1] أي بعيد الآفات عن العبيد.

وقوله : ﴿وأنزل من السماء ماء﴾ المراد بالسماء هنا ما علا لأن الماء ينزل من السحاب وهو مسخر بين السماء والأرض ، وسمى الحق ما بين السماء والأرض سماء فقال ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ﴾[2] أى فى الجو والماء عين الحياة.

(١) الأنبياء / ٣٢ .
(٢) الروم / ٤٨ .

فلذلك قال الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1] أى لأن الماء حياة يحى الإنسان بالرزق الذى هو الطعام والشراب من حينه ، فإن الظمآن الجائع يحصل له وهن حتى إذا أشرف على الهلاك إلى أن يأكل ويشرب يذهب عنه ذلك من حينه ويحيا لما أودع الحق فيه من تجليه بالاسم الرزاق .

سؤال عن معنى التجلى . ما هو التجلى؟

أجيب – **التجلى هو : ظهور نور الحق .**

وينقسم إلى تجلى أفعال وأسماء وهو المعنى بتجلى الصفات، فتجلى الأسماء وتجلى الصفات واحد والثالث تجلى الذات .

أما **(تجلى الأفعال)** فهو إظهار الأفعال الإلهية

وأما **(تجلى الأسماء أو الصفات)** : فهو عبارة عن إظهار آثار الأسماء الإلهية كأن يتجلى على أحد باسمه العليم فيعلمه علماً من لدنه ، وذلك هو التجلى بصفة العليم فلا يعرف التجلى بالاسم إلا بإشارة ، فإذا علم شيئا علم أن التجلى بصفة العلم ، اقتدار على شيء كقدرة آصف على نقل عرش بلقيس عليم أنه التجلى بصفة القدرة و هكذا .

وأما تجلى الذات : فهو ظهور ذات مقدسة بلا كيف ولا جهة

(١) الأنبياء / ٣٠ .

ولا مكان ولا زمان ولا نور ، و إذا ظهرت لا ترى هناك صفاته متميزة فيها بل هى الذات لا غير ، وأما الصفات فتعرف بظهور الآثار مثلا ، ولله المثل الأعلى.

العبد تكون له الصفات متعددة يكون كريما وشجاعا وخياطا ونجاراً وكاتبا وغير ذلك ولا يرى شيء من الصفات فى ذاته ولا يطلع على أنه متصف بهذه الصفات إلا بصدور آثارها منه ، فإن أعطى عرفت أنه كريم وإلا لم يطلع عليه ولو كان كريما فى نفس الأمر ، وإذا تقدم بنفسه فى المهالك علمنا أنه شجاع ، وإذا كتب علمنا أنه كاتب وإذا خاط كذلك وهكذا ، والحال لا يدرك بالبصر شيء من ذلك متميزا فى ذاته بل هى عينه.

سؤال : عن التجلى الذى صعق منه سيدنا موسى من أى أقسام التجلى هو ؟

وجوابه أنه من تجليات العظمة ومنه ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[1] وفيه مدح له صلى الله عليه وآله وسلم حيث لم يتصدع ، ومعناه لو تجلينا بجمعيتنا لأن القرآن فى اللغة هو الجمع ، ومعناه ظهرنا فى القرآن بجمعية الأسماء .

(١) الحشر / ٢١ .

قال أمير المؤمنين سيدنا علىّ بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه ، فى الجنة « الحق يتجلى لعبيده فى القرآن ولكن لا يعرفونه » والتجلى بجمعية كلية الأسماء لا يوجد معناه . ثم تارة يكون التجلى فى الصورة ليمكن التحقق كقوله صلى الله عليه وآله وسلم:

(رأيت ربى فى أحسن صورة) فالحق لا ينزه عن الصورة[1] وإنما ينزه عن الانحصار ، وقد تجلى لموسى عليه السلام فى النار فقال ﴿ قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾[1] وذلك أنه لما قدم من مدين يريد مصر هو وأهله ووصل إلى الطور وكانت أهله حينئذ حاملا فوضعت تلك الليلة ، وكانت شاتية شديدة البرد ، فاحتاج إلى النار للمرأة والابن الصغير ، فرأي ناراً بجانب الطور وهو تجل من تجليات الحق تجلى له فى الصورة يتبعها بعيداً عن أهله ﴿ قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ لأنه لو حصل له التجلى بقرب المرأة وحصل منه ما حصل من كون العصا تهتز كأنها جان وهروبه منها لكان فيه بعض ضرر على المرأة لكونها ضعيفة ، فلربما حصل لها ولجنينها هلاك ثم قال ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[2] فليس المراد بمن فى النار الحال فيها بل المراد عينها أى المقصود فى صورة النار.

(١) قوله فالحق لا ينزه عن الصورة أى فى المنام لا فى اليقظة اهـ مصححه.

(٢) القصص / ٢٩ .

وقوله ﴿ بورك من فى النار ﴾ هو الله كقوله ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[1] وقوله ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ موسى عليه السلام فإنه رسول مبارك ثم قال ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى سبحانه أن يحصر فى مكان أو صورة فإنه مع ذلك فى السماوات وفى الأرض ، والتجلى وإن كان فى النار فهو مجموع فيه كل شىء فى عين كونه فى النار ولا يعرف ذلك إلا بالذوق فلا تبلغه العبارة على حقيقته ، والحاصل إن لم تكن من السابقين بمعرفته فكن من اللاحقين بالإيمان به.

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

ولا تكن من الخاسرين بالإنكار فتكون من الذين كذبوا بمالم يحيطوا به علما ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾[2] .

فإن قيل : ما بال سيدنا موسى عليه السلام فى هذا التجلى لم يصعق مع أنه فى بدايته بالنسبة إلى الذى صعق منه ؟ وهو قوله ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾[3].

والجواب : أن هذا ابتدأه الحق باختياره بلا طلب فأعطاه القوة له . وذلك طلبه هو من عند نفسه فلم يعطه الحق القوة

(١) النمل / ٨ .

(٢) الأعراف / ٥٤ .

(٣) فصلت / ٥٢ .

يتحمل بها ولما استعجل الرؤيا سيدنا موسى عليه السلام استعجلها قومه وطلبوها ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾[1].

رأى بعض الأولياء سيدنا موسى : صلى الله عليه وآله وسلم فسأله عن حديث (أكان ممن استثنى الله) فقال : إنى جوزيت بصعقة الطور ، فقال له : إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا) فقال إن الصعقة كانت موتا . وقد سمى الله الصعقة موتا ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[2] أي صعقتكم التى هى الموت .

وقوله ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا ﴾ تفريع هذه الجملة عما قبلها ، يقول هذه الأرزاق قوة لأبدانكم أعطيتكم إياها لتستعينوا بها على عبادتى فلا تستعينوا بها على عبادة غيرى ﴿وقوله أندادا﴾ الند المساوى ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3] وقال (تجعلوا) ليعم وجوه الاتخاذ كلها فلذلك لم يقل تعبدوا وقد ، فسر الحق ذلك فى الآية التالية بقوله : ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[4] بعد أن قال ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾[5].

---

(١) الأعراف / ١٤٣ .
(٢) النساء / ١٥٣ .
(٣) البقرة / ٥٥ ، ٥٦ .
(٤) الشعراء / ٩٧، ٩٨ .
(٥) البقرة / ١٦٥ .

كأنه قيل : يا رب كيف يتخذونهم أنداداً ؟ فقال ﴿يحبونهم كحب الله﴾ أى إذا تعلق القلب به كتعلقه فقد اتخذه نداً.

فالقرآن آيات بينات يبين بعضه بعضا فهو[1] شريك فى المحبة فمن أحب شيئا مع الله فقد أشرك مع الله فى المحبة ، وأقسام الشرك ثلاثة مذكورة فى القرآن :

(أحدها) : شرك التسوية وهو المذكور فى قوله : ﴿يحبونهم كحب الله﴾.

(الثانى) : أن يحب ذلك الشيء أكثر من الله ، وهو المذكور فى قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[2].

وجعلهم أعداء فتوعدهم ، وأبهم المتوعد به حتى يأتى الله بأمره للتهويل كقوله : ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾[3] أى تنزل قريبا منهم حتى يأذن لها الحق بالنزول عليهم فتنزل عليهم ، فجعل هذه الأشياء كلها من قوله ﴿وآباؤكم وأبناؤكم﴾ إلى آخره شركاء ،

---

(١) البقرة / ١٦٥ .
(٢) التوبة / ٢٤ .
(٣) أى : الندُّ .

وكل من أحب غير الله فقد اتخذه رباً وصار هو عبده ، وفى الحديث« تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش » .

وقوله ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[1] من جنس إبليس ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾[2] فالفاسق هو الذى فسدت عبوديته وذلك فساد سعادته من فسقت البيضة إذا فسدت ولم تصلح للتفريخ ، فجعلهم عبيداً لهذه الأشياء بمعنى عباداً لها يعبدونها من دون الله وليس المراد أنهم يسجدون لها بل يحبونها ويشتغلون بها عن ربهم ، والأمر ليس مختصا بهؤلاء بل مراده كذلك عبد الفرس وعبد البندق وعبد المرأة وعبد الكتاب ، ومن ثم رأي بعض الصوفية بعض طلبة العلم بين أيديهم كتب فقال : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟! ما دام فى قلبه بصيرة عمى عن غيره ، حبك الشيء يعمى ويصم أي عن غير المحبوب فهو يقول : إذا تعلق القلب به كتعلقه بالله فقد اتخذه ندا.

قال صلى الله عليه وآله وسلم (لكل أمة عجل وعجل أمتى الدنانير والدراهم) ولا أحد من هذه الأمة سيسجد للدينار والدرهم ، ولكن لما كانت لهم سماها عجلا ولو لم تصنع عجلا ، والعجل هو الصنم.

---

(١) الرعد / ٣١ .

(٢) المائدة / ١٠٨ .

القسم الثالث :

وهو أول درجات الإيمان أن يحب الله ويحب معه شيئا ولكن يغلب محبة الله على محبة ذلك الشيء ، وهو وإن كان فى الجملة شركاً لكنه مغتفر ، وهو الذى قال الله فيه ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾[1] فجعل التفضيل على بابه ، ويحتمل أن يكون المراد الكامل الايمان فيكون اسم التفضيل ليس على بابه كقول يوسف ﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾[2] فإنه لا يحب ما يدعونه إليه.

وكقوله تعالى ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾[3] أى مستو عليه البدأ والإعادة فلا تفضيل على فهم من قال كذلك وإلا فالآية الكريمة لا ينبغى فيها ذلك ، فإن الحق يخاطب الناس بعرفهم فمن كانت له مادة أهون مما لا مادة له لأنها صارت ترابا وبقى عجب الذنب .

والمعنى الذين آمنوا شديدو المحبة لله فهم يحبون الله وحده لكونهم لا يشهدون غيره فى الكون حتى - يحبوه إذ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وليس فى الوجود إلا ذلك وهذا المشهد هو مشهد سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فمن ثم كان يقول (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ،

---

(١) الكهف / ٥٠ .

(٢) يوسف / ٣٣ .

(٣) البقرة / ١٦٥ .

وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء) والتحق به صلى الله عليه وآله وسلم طائفة الصوفية فهم الذين خلصوا النخالة من الدقيق التخليص الكلى ، ولا يزال أحدهم يغربل فيخرج الكبار الكبار حتى يترك الدقيق الناعم الذى يجعل فى العين ، فهم كأصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا نخالة فيهم.

دخل بعض الصحابة على أحد الأمراء فقال له : حدثنى حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن تجلس ، فقال له : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « إن من شر الدعاة الحطمة » فقال له اجلس فإنك من نخالة أصحاب محمد ، فقال له وهل فى أصحاب محمد نخالة ؟

ومعنى (من شر الدعاة الحطمة) هم ، الذين يحطمون أموال الناس حطما أي يأكلونها أكلا ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطهم بالأمانة والتضحية إلا ضاقت عنه يوم القيامة رحمة الله التى وسعت كل شيء » وقال صلى الله عليه وآله وسلم « إن من أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله فى ملكه فجار فى حكمه ».

وهذا شامل لكل أحد فإن أقل ما هناك أن يستر عيبه وأعمال جوارحه فلا يعدل فيها وينصحها بأن يستعملها فى طاعة الله ،

قال صلى الله عليه وآله وسلم : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » فكل منا أشركه الحق فى ملكه فجعله ملكا على جوارحه ، وقد أشار الرسول إلى ما ذكرنا بل صرح به فى الصحابة الذين بهم زين هذه الأمة وأعلاها ؛ لأن كل واحد منه وشريكه بحسب مقامه ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم لأبى بكر : «الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل على الصفا الأملس ».

وإذا كان كذلك فلا يشعر به إلا من كان له حواس حادة جدا

فإن من الشرك أن يقول الرجل : ما شاء الله وشاء فلان . فإن الواو فى لغة العرب للتشريك ، فإن كان ولا بد فيجعل بينهما ثم شاء فلان ، لأن ثم تقتضى البعدية فتكون مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب متأخرة عنها ، وإن من الناس من يقول لولا فلان لقتلنى فلان .

وإذا كان هذا القدر شركا فما بالك بما وراءه ؟! فتبين لما قررناه أن للإيمان ثلاث مراتب : دون ووسط وأعلا ، وللشرك ثلاث مراتب : دون ووسط وسفلى .

فللإيمان درجات كما أن للشرك درجات :

فأول مراتب الإيمان : أن يغلب محبته على محبة غيره، محبة طبيعية كالولد .

والثانية : أن يحب الله ويحب معه شيئاً محبة شرعية كأن

يحب الشيء لا يحبه إلا لله كالمال للصدقة والسلاح للجهاد ؛ أو يحب أحداً لكونه عبداً لله أو آية لله ، فإن من أحب الآية من حيث كونها آية وأثرا على موجدها فهى محبة لله ، فمن أحب غيره من أجله فقد أحبه بالأولى .

والثالثة : أن يستغرقه الحق عن كل شيء ويصير الحق سمعه وبصره كما يليق بجلاله ، وآيته من كتاب الله ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾[1].

محق وسحق وأعدم الكون من نظره جملة واحدة ماعدا الحق سبحانه وتعالى ، فلا يشهد فى الوجود غير الله إذ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وليس فى الوجود إلا ذلك .

وهذا مشهد سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الوجه الذى من الله : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء» .

فصاحب هذا المقام لا يأكل طعاماً عن شهوة نفس فضلا عن غيره ، بل يأكل حفظا للأمانة التى أمره الحق بحفظها وهى النفس لكونها نفس الله أي ذاتية الله التى اشتراها منه يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾[2].

(١) الروم / ٢٧ .
(٢) البقرة / ١١٥ .

ومنه قول بعضهم : « كلوا الطعام على شهوده فإن نزلت المرتبة فعلى ذكره » فإن الأكل على الغفلة حرام فى تشريكه الإرادة .. الخ فيكون من الذين لأماناتهم وعهدهم راعون .

وأما درجات الشرك فثلاثة .

(الأول) : أن يحب شيئا يسوى بينه وبينه بالمحبة ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾[1] ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[2].

(المرتبة الثانية) : التى أسفل من هذه أن يغلب جهة حب ذلك الشيء وهى التى فى قوله : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾[3].

فهذه أقبح من تلك فصاحبها أخسر من صاحب تلك.

لطيفة : يصح أن يكون أفعل التفضيل ليس على بابه وتكون من تعليلية ، فيصير معنى الكلام حبب إليكم من أجل الله ورسوله لكونها آيات الله تشهدونه فيها ، فسر عظمته من هذه الحيثية وإن كانت غير عظيمة من حيث ذاتها ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾[4] فلفظ القرآن يفهم منه كل واحد مقصوده فى غير تعبير فاللفظ الواحد يخاطب كل واحد فى مقامه حين يأتى ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[5].

(١) التوبة / ١٤١ .
(٢) البقرة / ١٦٥ .
(٣) الشعراء / ٩٨ .
(٤) التوبة ٢٤ .
(٥) النور / ١٥ .

وقوله ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[1] أى تجليه الأكبر فتجدون مالم تجدوا قبل ذلك ، والشرك بكل وجه هو أقبح الخصال عند الله .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (يقول الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا وأشرك فيه غيرى تركته وشركه) ، وفى رواية (فأنا برىء منه).

وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الرجل يجاهد فى الغزو ويريد الأجر والغنيمة فقال (لا أجر له) وقال (فلا تقولوا هذا لله وللرحم فإنه لا يقبل إلا ما كان خالصاً) ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[2]. أى شىء من دينار ودرهم وغيرهما فلا بد من معرفة أنواع الشرك هذه للتجنب.

كان بعض الصحابة يقول : كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر . لأجل ألا يقع فيه ، قال بعض الحكماء : تعلمت الشر فى الخير ، ومن لم يعرف الشر من الخير غالبا يقع فيه فورطة الأنداد هذه كثيرة جداً.

وقوله (أنداداً) جمع الحق لأن من الناس من تكثر أصنامه فيحب أشياء متعددة ويشتغل عن مولاه ، لأنه حال شغله بشىء

---

(١) الروم / ٣٢ .

(٢) التوبة / ٢٤ .

متفرغ له عن غيره فلا يمكن أن يكون فى القلب ، ويكون الحق فيه قطعاً .

وفى الحكم العطائية : (العمل المشترك لا يقبله والقلب المشترك لا يقبل عليه) قال بعضهم لبعض الصوفية : عظنى ، فقال له : احذره فإنه غيور .

لا يحب أن يرى فى قلب عبده غيره ، وإذا كان الإنسان لا يحب أن يعانده فى بيته سواه – وهو معنى قول الله ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾[1].

وقال بعض العلماء لبعض الصوفية : عظنى فقال له : ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[2] وكل ما يفرق عن الله أرباب متفرقون .

ووجد بعض الصوفية جماعة من الطلبة بين أيديهم كتب العلم فقال لهم : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟!

وقال بعض الأولياء لرجل من طلبة العلم بيده كتاب متن مختصر الشيخ خليل المالكى فقال له : هذا صنمك ؟! فقال له : هذا متن الشيخ خليل ، فقال له : كل ما يشغلك عن الله فهو الصنم كائنا ما كان ، والله يقول : ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[3] وهم لا يذكرون لا كثيرا ولا قليلاً ، وأى الصنم أكبر من هذا ؟!

---

(١) الكهف / ١١٠ .

(٢) آل عمران / ٢٨ .

(٣) يوسف / ٣٨ .

قال بعضهم : معبود مطاع من دون الله وتدعى التوحيد ؟! الدركة الكبرى التى هى أسفل الدركات دركة الدهريين الذين يجحدون الإله ويقولون ما يهلكنا إلا الدهر، ولقد صدقوا فإن الدهر من أسماء الله ، ولكنهم يطلقون الاسم على الكون ، فمن هنا أتى عليهم فهم لا يرون فاعلا فى الوجود غير الأيام والليالى ، وكذلك من يجحد الأولوهية الحقة كفرعون ونمرود فلا أقبح من هذه الطائفة لأن بعض الكفار يدعون محبة الله ويقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

فهم أهون فى الكفر من هؤلاء وإن كان الكفر كله قبيحا . هذه مراتب المحبة ومراتب الخوف مثلها فالخائف من غير الله إما أن يخاف الله لخوفه من سواه أو يخافه أكثر أو أقل فالذى يخاف الله أكثر صاحب مرتبة الاتصال الصغرى ، فإن خاف شيئا من خلق من أجل الله فصاحب المرتبة الوسطى ، فإن تمحض خوفه لله فهو صاحب المرتبة الكبرى .

والذى سوى بين الحق وغيره وهو صاحب الدرجة الأولى فى الشرك ، وصاحب الدرجة الوسطى الذى يخاف غيره أكثر منه ، وصاحب الدرجة السفلى من يخاف غير الله فقط لكونه يجحد الإله ، ومن المعلوم لا يخافه إلا من يعرفه . وهناك ميزان يعرف المرء به نفسه فى أي منزلة وهو قول النبى صلى الله عليه وآله

وسلم (من أحب شيئا أكثر من ذكره) فينظر المرء إلى قلبه فإن وجد ذكر الحق فيه والحضور معه فى غالب الأوقات وذكر غيره فى النادر فهو صاحب مرتبة الأعيان الصغرى ، فإن كان ذكر الغير مساوياً لذكر الحق فهو المشرك الأول فإن كان ذكر الله أكثر فلا يسأل عن شركه.

والذى يخلص قلبه لجهة الحق ولا يجد فى جميع أوقاته قلبه إلا مغموراً بذكره فذلك هو المؤمن الأكبر ، ومن وجد نفسه مستغرقاً فى الغير فهو العبد الخالص لذلك الغير ليس من الله فى شيء كائنا ما كان ذلك الغير إن لم يكن حبه له بالله ، فأنت عبد من أحببته فاختر لنفسك من تختار كما قيل :

أنت القتيل بأي من أحببته
فاختر لنفسك في الهوى من تصطفى

كان رجل من أهل الثروة شيخا فلقيه أحدٌ أيام البرد فى طريق وليس عليه إلا ثوب خفيف لا يقيه من البرد فقال له : ما هذا فقال له : القلب مشجون بالفلوس يعنى أنه مستدفء بها فى قلبه وأخذ له ذهبا كثيرا أنواعا بعضه قطع وبعضه صيغة فكل يصبرها صبرة ، ويصير ينقى كل صنف وحده ويجلس ينظر إليه الليل كله وهو يشتغل بها ، فإذا جاء الصبح جمعها فى ظرفها وهكذا كل ليلة .

فهذا هو الصنم بعينه والحاصل أن الشغل بغير الله من الجهل لأن الله خلق لنا كل شيء ، وخلقنا له ، وإذا كان كل شيء مسخرا لنا فلابد أن يأتينا ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(١).

فلا يليق بنا أن ننزل من مرتبتنا التى هى السيادة إلى مرتبة العبودية ، وهو يقول كونوا عبيدا لى ونحن نكون عبيد ما خلق لنا فنكون عبيد عبيدنا .

ومن اتخاذ الأنداد الحزن علي ما ينزل بنا من البلايا والمحن فإذا كان هو يقول ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾(٢) فما للعبد لا يفهم عنه قولا ؟ بلانا بنفسه اعتناء ، وفى المثل : الحجر من يد الحبيب تمر. والحجر من يد الحبيب تفاح.

وإذا كان هو المبتلى فما أحلى البلوى فالحق ينزل البلاء ليجرنا به إليه ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾(٣) ومن عرف يد الحبيب هى الضاربة له قبلها، وهو أرحم بنا منا بأنفسنا فما فعل ذلك إلا ليجمعنا عليه ، قال بعضهم : يقتل ويعزى ويبكى ! كيف بكى ؟! إذ الفاعلون مظاهره فاعلون عنه ، فإذا ابتلى فليس له إلا الثناء على الله ليحوز ثناء الله عليه .

---

(١) الأحزاب / ٤١ .

(٢) الذاريات / ٥٦ .

(٣) محمد / ٣١ .

وفى الحديث القدسى : (عجبت لعبدى المؤمن أمره كله خير أنزع نفسه من بين جنبيه وهو يحمدنى) فلا ينبغى الحزن إلا على التقصير فى جانب الله ، ومن ثم كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متواصل الأحزان ولا يغتم لشيء إلا من أجل الله ، وقد جرت عادة الله تلك فى أحبابه الذين هم أكابر حضرته من الرسل فمن دونهم ، فمن ذلك وافق الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربَّه فى ذبح ولده إسماعيل لما طلب من الحق أن يهب له من الصالحين فبشره بغلام فولد له إسماعيل فأقبل عليه بالمحبة لكونه شيخاً كبيراً وما ولد له إلا في آخر عمره.

فلما بلغ معه السعى وهو ابتداء منافع الولد أمره الحق بذبحه يقول فى ذلك (كنت خليلى وحدى فأردت أن تتخذ خليلا ثانيا فيصير فى القلب خليلان اذبحه) ، أمره بذبحه ولم ينزل عليه من عنده موتا لتعظم المصيبة ، قال له : (تول ذبحه بنفسك لأنك فى الخلة وتريد أن تميل إلي غيرنا) .

وقال ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾(١) ولم يقل له أمرنى ربى أن أذبحك لئلا ينفره من ربه فيقع فى قلبه كراهة ربه من حيث إنه أمره بذبحه ، وهو فهم أن الآمر له هو فقال له ﴿افعل ما تؤمر﴾ فعرف أنه مأمور من الله لا مجرد رؤيا ، فبذل نفسه لله

---

(١) الأنعام / ٤٢ .

ولم يقبل ذبحه وهو غافل فيبشر بلقاء الله لأنه مشتاق للقاء ربه فهو تعب ولا يستريح إلا بلقاء ربه ولذا قال صلى الله عليه وآله وسلم (لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه) فكيف بالأنبياء ؟! وإنما قال مع ذلك ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ ليطيب خاطر أبيه أي من الصابرين على فراقك لأنه حصل عنده أوان لقاء الحبيب الأكبر الذى هو الله ومفارقة الحبيب الذى هو الوالد فأعطى كل واحد حقه فقال : من الصابرين.

لأن اتخاذ حبيب ثان ينافى الخلة لأن معنى الخل تخلل محبة الله جميع أجزائه كما يتخلل الصبغ الثوب .

فيكون العرض حيث جوهره والجوهر حيث عرضه فلا يمكن بعد ذلك الانفصال ، كيف وهى ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾[1] فلا تكشف كما تكشف صبغة الصباغ المجازى الذى يسرق صبغته من صبغة الله على أن بعض صبغ الصباغين لا تكشف.

قال بعض المقربين : لو تكلفت أن أرى غير الله ما استطعت ،

وفى ذلك قيل :

قد تخللت مسلك الروح منى ولذا سمى الخليل خليلا

(١) الصافات / ١٠٢ .

أي كما أن الروح تتخلل البدن كله ولا تتحيز فى جهة معينة دون أخرى مصبوغ بها البدن كله ، فهى كالزبد في اللبن ، وكسريان الماء فى العود الأخضر ، والنار فى الفحم.

والأنبياء كلهم لهم خلة مع الله ولكن لما كانت رتبة الخلة العليا للخليل سمى بها ، وهذا معناه ، فالحق يطلق على كل واحد منهم الوصف الغالب عليه كموسى عليه السلام وسماه بالمكالم ولما كان رسولنا صلى الله عليه وآله وسلم أفضلهم فى كل شيء قال فيه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1] يقول أنت أنا وأنا أنت ولم يثبت هذه الرتبة لغيره ، وأكد ذلك بقوله :﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي يدك التى فوق أيديهم يدنا.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾[2] أسلم الخليل ولده للذبح وأسلم الولد نفسه لله وأبت السكين أن تذبح والحال أنها كانت حدتها تلتقط ناداه الحق ﴿أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا﴾[3] وفداه بذبح عظيم لأنه قد حصل المقصود من إخراجه من قلبه فليس الذبح مأموراً به إلا لذلك ، والخليل أسلم نفسه أيضاً حين ألقى فى النار حتى إن جبريل قال له ألك حاجة ؟ فلم يلتفت إليه وقال له : أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى ! فقال : سله فقال : حسبى من سؤالى علمه بحالى .

(١) البقرة / ١٣٨ .
(٢) الفتح / ١٠ .
(٣) الصافات / ١٠٣ .

فتولى الحق إنجاءه بقوله ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[1] ولم يقل لجبريل : قل لها ولا للملك الموكل بالنار بنفسه وكذلك من ينزل التدبير إليه لا يكله الى غيره ويتولاه بنفسه .

وكذلك يعقوب لما أقبل على ولده يوسف بالمحبة فرق الله بينهما كأنه يقول له ... أردت أن تعمل تلك العملة التى عملها أبوك إبراهيم هنا نحن نفرق بينك وبينه ولا نتركك أن تشتغل به ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾[2] وهو من بيته ويوسف اشتغل عن الله بمحبة والده .

فلما جعلوه فى غيابة الجب أوحى الله إليه ولم يوح إليه قبل ذلك إلا الرؤيا قال الله ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا﴾[3].

فلما فقد حبيبه جاءه الحبيب الأكبر من باب ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[4] أي يخلفه بهويته وهوية الحق عين ذاته.

تنبيه : ليس من محبة السوى محبة النبى صلى الله عليه وآله وسلم لعائشة فإنه هو الذى قص علينا عن ربه ما وقع للأنبياء فى ذلك كقصة الخليل ويعقوب ويوسف عليهم السلام .

وإذا علمنا ذلك من ورائه فعلمه بها أولى بل حبه صلى الله عليه

(١) الصافات ١٠٤ ، ١٠٥ .
(٢) الأنبياء / ٦٩ .
(٣) يوسف / ١٥ .
(٤) سبأ / ٣٩ .

وآله وسلم إلهى ، يحب بمحبة الله فى جميع من يحبه من زوجاته وأصحابه وغيرهم وسائر أحواله حتى أولاده فلا يحب شيئا أكثر إلا الذى يعلم أن الحق يحبه أكثر، فحبه تابع لحب ربه فلا ابتلاء له فى واقعة الإفك ، وحزنه فيها لله فإن أذاهُ هو أذى الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[1] فهو أجل من أن يحزن على فراق عائشة وإنما الواقعة كانت تأديباً لعائشة لكونها كانت تفتخر على أزواج النبى صلى الله عليه وآله وسلم لكون النبى تزوجها بكراً ولكونها بنت الصديق.

فكانت تقول للنبى صلى الله عليه وآله وسلم : أرأيت لو كان لك واديان واد رعى قبلك وواد لم يرع فى أيهما كنت ترعى إبلك؟ فيقول صلى الله عليه وآله وسلم لها (فى الوادى الذى لم يرع) فأراد الحق أن يبين لها بواقعة الإفك أن ربه لا يحب الافتخار ولو بالحق ، لأن الافتخار من العظمة التى أنعم الله عليه بها فيقول بعد كل كلمة (ولا فخر) الحديث المشهور .

فنزل بأم المؤمنين عائشة ما نزل من القول فيها عتاباً لها على الافتخار ، فلذلك قال الله تعالى ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[2] يشير إلى ما فيه من الدواء للعجب ، وإذا ذاقت مرارة ذلك لا ترجع إلى الافتخار قال رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) الأحزاب / ٥٧ .
(٢) النور / ١١ .

وسلم « لا يلدغ المؤمن مرتان من جحر واحد » فكلما وقعت له واقعة حفظها .

كان بعض الصوفية بالكعبة فلطم فانفقأت عينه ، وقيل: لو أنك اكتفيت فذاك وإن زدت زدناك ؛ لكونها نظر بها إلى محرم وهكذا أحبابه لا يهملهم بل يعاقب على اليسير حتى لا يعودوا ويقع منهم ما يبعدهم عنه وغيرهم يملى له .

مر بعض الصوفية على حمار له ببيت بعض الحكام بمكة فلما حاذى بالحمار البيت مال عن الطريق فقال : عقلك أحسن من عقل الباشا ، فسمعه الباشا وهو فى قصره ، فدعا به فقال له : مابالك تشبه حمارك بى أو ما وجدت غيرى من سائر الناس ؟ فقال له أعطنى الأمان وأنا أخبرك . فأمنه فقال له : مررت يوما على هذا الحمار فلما وصلت إلى هذا المحل غاصت رجله فى حفرة فى الأرض ، فاليوم لما أتى إلى ذلك المحل مال عنه من أجل تلك المرة الواحدة ، وأنت لم تعتبر بما يقع لك فصدقه وأخلى سبيله .

وقوله ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1] أنهم لم يخلقوكم ولم يخلقوا لكم ذلك .

سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أعظم الشرك فقال «أن تجعل لله ندا وهو خلقك» والمعنى لا تستعينوا برزقى على عبادة غيرى .

---

(١) البقرة / ٢٢ .

سؤالان : الأول : إن واضع اللغة هو الله عز وجل فإن كان كذلك فتفسير كلام الله لمن توسع فى اللغة وعرف معانى القرآن فإنه تتضح عنده المعانى الموضوعة لها الألفاظ لكثرة اطلاعه على المواد.

والجواب : أنه لا ملازمة بين الألفاظ المشتركة الموضوعة ، وقد يريد الحق منها أحد معانيها فيصرفه المفسر للمعنى الآخر الذى لم يقصده الحق تبارك وتعالى فيقع الخطأ ، كالعين فإنها موضوعة للباصرة والجارية والذات والتقدير فتخصيص أحدهما بالمعنى لا يفهم إلا بتفهيم الله له ، والقرائن لا تفهم شيئا لأنها قد تكون ظاهرة بحسب فهم القرينة والحال أن هناك قرينة غير هذه خفيت عنه تظهر لغيره وقد يكون ليس معتمداً فيه على القرينة فلا يفهم معنى كلام الله إلا بنور إلهى يفرق به العبد بين الحق والباطل ، وسبيله ليس الكسب فقد يفسر العارف ويكون مراد الحق غير ذلك ، بخلاف الذى أوقفه الله على مراده من كتابه ، فإذا كان الفهم إلهيا فإن صاحبه لا يخطئ ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾[1] بالبناء على الفاعل .

هذا والأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعض المرات لا يهتدون لمراد الحق من كل الوجوه وإن كانوا لا يخطئون ، قال الله تعالى

---

(١) العنكبوت / ٤٩ .

فى حق داود وسليمان ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾[1] والحال أن داود لم يخطئ وانما حكم بحق ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[2].

ولكن لما كان حكمه فيه الضرر على صاحب الغنم ، وحكم سليمان لا ضرر فيه وهو مُرضٍ للجانبين كان أولى والحق هو الذى أفهمه وذلك قول الله تعالى ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾[3] والنفش هو الرعى ليلا .

وقد حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أصحاب الدواب أن يحفظوا دوابهم بالليل ، وعلى أصحاب الزرع أن يحفظوها بالنهار ، فإن رعت ليلا كان الضمان على أربابها ، وإن رعت نهاراً لا شىء عليهم ، فداود حكم بالضمان فلم يخطئ ولكن لما قومت الغنم وصارت قيمتها مساوية لقيمة الزرع حكم بأن تعطى الغنم لصاحب الزرع.

والحكم كذلك من جهة أن الغريم إذا كان دينه قدر المال يحكم له به ، ولكن لما كان يمكن أن يوفى من غير ضرر بالمدين كان أولى ، فحكم سليمان أن يأخذ الغنم صاحب الزرع فيحلبها ويأخذ الزرع صاحب الغنم فيسقيه حتى يعود إلى حاله الذي أكلته فيه الغنم فيأخذ غنمه ويترك لصاحب الزرع زرعه.

(١) الأنبياء / ٧٩ .
(٢) الأنبياء / ٧٩ .
(٣) الأنبياء / ٧٨ .

كان ذلك أولى لأن صاحب الزرع كان يتعيش من زرعه وصاحب الغنم كان يتعيش منها أيضا ، فلما كانت معيشة صاحب الزرع هى التى تحمله على الاستعجال بالقيمة أعطاه إياه فصبر وصاحب الغنم ثمرته أضاعها بتفريطه فى الغنم فهذا هو الفهم . اهـ .

(الثانى) : الزينة قد أمر الله بها ولم يحرمها ، فإذا أحب أحد الزينة من الناس والله يقول ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾[1] فما الحكم بذلك ؟ أهـ .

والجواب : أن المراد بالزينة هى زينة الله أي التزين لله، إن الله إذا أنعم على عبده نعمة أحب أن ترى عليه كأن يتزين ليراه الحق متجملا بما أعطاه ليحبه ، لا ليراه الناس على صفة حسنة.

فتلك زينة الناس لا زينة الله فهى مراقبة غير الله التى هى الرياء بعينه أهـ .

فكلهم طلبوا البينة على أنه لا ريب فيه ، فقال تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

هذا راجع لقوله ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3] ولما

(١) الأعراف / ٣٢ .
(٢) البقرة ٢٢ .
(٣) البقرة / ٢ .

علم الله أن هذا الرسول الذى أرسله لابد أن تطلب منه بينة حتى يُتبع أعطاه بينة الإعجاز أهـ.

والريب : التردد فى الشىء ، وآثر **(عبدنا)** على رسولنا لأنهم لم يقروا برسالته ؛ ولأن العبودية أشرف الأشياء فلذلك وصفه الحق بها فى أشرف أوقاته وهى ليلة الإسراء فقال ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾[1]. تحداهم بسورة واحدة وهذا آخر الإعجاز لأنه أولا طالبهم بالقرآن كله وذلك قوله ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾[2].

لأنه لا يحسن فى العرف أن يطلب من أحد الشىء القليل فإن عجز طلب منه الشىء الكثير فإن عجز طلب منه الأكثر لأنه لما عجز عن القليل من الكثير فالأكثر أعجز وأعجز وإنما يطلب الكثير فإن عجز خفف عنه.

وقوله حجة وعناد وإظهار للعباد وإلا فهم يعرفون أنه من عند الله ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[3] فعجزوا فقال لهم لما قالوا افتراه ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[4] وقد دعاهم إلى الإيمان بها والعمل كما أنه دعا إلى الإيمان بالقرآن .

(١) الإسراء / ١ .
(٢) الطور / ٣٤ .
(٣) الأنعام / ٣٣ .
(٤) هود / ١٣ .

فآمن به رجال عقلاء يعرفونه وامتثلوا أحكامه ، ومن الذى يجيب إلى الإيمان بها وهو يعلم أنها مفتريات افتراها فلان ؟ ويلزم نفسه أحكاماً فقرأه عليهم فعجزوا . ولم يأتوا بشىء . فقال لهم ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾[1] أى إلى الإيمان بها ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾[2] فقال فى آية يونس أيضا ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3] أى ادعوهم إلى الإتيان بها والسورة ثلاث آيات فطلب منهم ثلاث آيات كالقرآن لها معنى صحيح تخبر بأمر مغيب إما إخبار فيما مضى وإما بما سيكون كقوله ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[4] ... الخ .

وسبب نزولها لما مات ولد النبى صلى الله عليه وآله وسلم القاسم فقال المشركون : إن محمداً قد بتر : يعنى انقطع نسله فنتربص به ريب المنون ، يموت كما يموت الناس فلا يبقى معه من يحيى دعوته ، فرد الله عليهم بقوله ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي أهل الكوثر فحذف المضاف أى إن أخذنا منك ولدا واحدا فقد أعطيناك المؤمنين كلهم أولاداً لك يحيون دعوتك (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) هكذا فى مصحف أبىّ وعلىّ أيضاً ، والمعنى كذلك من كانت زوجته أمك من أجلها فهو

(١) هود / ١٤ .
(٢) هود / ١٤ .
(٣) يونس / ٣٨ .
(٤) الكوثر / ١ .

أبوك ، وهذا إخبار بالغيب فإن الإسلام حين نزولها كان ضعيفا ليس معه إلا خديجة وعلى ونحوهما فلذلك يقولون ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾(١).

وقوله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾(٢) أى اسجد شكراً لهذه النعمة ﴿وَانْحَرْ﴾(٣) أى الأعداء بأهل الكوثر الذين أعطيناكهم فى نحور أعدائك وابترهم ، فلم يخلفهم من أولادهم أحد يحيى دعوتهم بل من خلف ولداً ولده صار ولد النبى صلى الله عليه وآله وسلم وبتر أبوه ، ونحرهم بأولادهم كأبى عبيدة عامر بن الجراح فإنه قتل أباه الجراح يوم بدر ، وذلك أن أباه كان يتحرى أن يقتله فكلما رآه قبله حاد عنه وأبوه لم يزل يتبعه ليرميه فلما رأى أنه لا يدعه قتله .

وكخالد بن الوليد أبوه الوليد بن المغيرة كان من المؤذين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعطى الله ولده للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وكعكرمة بن أبى جهل أعطاه للنبى صلى الله عليه وآله وسلم فدمرهم بأولادهم ثم قال ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾(٤).

وهذا إخبار عن مغيب أيضا لم يقع حينئذ ، لأن دين الكفر

(١) الطور / ٣٠ .
(٢) الكوثر / ٢ .
(٣) الكوثر / ٢ .
(٤) الكوثر / ٣ .

حينئذ كان فى شدة وقوة ، ولا يتخيل للناظر أنهم سيبترون ، فأخبر الحق في أقصر سورة بثلاث معجزات :

الأولى : أن النبى له أولاد بلا عدد وهم أهل الكوثر .

والثانية : فيها الأمر بنحرهم من قبل ظهورهم وكما أُمر وقع.

والثالثة : أخبره أن المشركين هم المبتورون وكانوا حينئذ أقوياء بأبنائهم فانبتروا إلى الآن فما ثم من ينتسب إليهم أهـ .

فالمثلية المطلوبة هى أن يؤتى بكلام فيه إخبار بالغيب إما الأخبار من الماضى كقصص آدم وخروجه من الجنة ، وقصة نوح وإبراهيم وموسى وهارون ويوسف ، والله يقول ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾(١)، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾(٢) أي آيات نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإنه أخبر بأمر غيب ولم يكن يحضره لأنه لم يكن موجودا بذاته فى زمن يوسف .

فكل هذه القصص مكتوبة فى الكتب السابقة التوراة والإنجيل وغيرهما ، وكل ما حكاه سئل عنه أهل الكتاب الذين لم يجحدوه فقالوا ما أخطأ حرفا واحدا ولم يكن يجالس أهل الكتاب بل كان راعيا للغنم ، وأبعد الناس عن القصص والأخبار رعاة الغنم ، ولا يعرف الكتابة ، كتب له اسمه فلم يعرفه من طريق الظاهر .

(١) العنكبوت / ٤٨ .
(٢) النحل / ١٠٣ .

فلذلك قال لعلى حين أراد محوه : أرنيه حين كتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله . فقال أبو سفيان : لو علمنا أنك رسوله ما نازعناك اكتب محمد بن عبد الله فقال لعلى : امحه ، واكتب محمد بن عبد الله فقال على : والله لا أمحو اسمك فقال : ارنيه فأراه إياه فمحاه والله يقول : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾(١).

وقال أيضا حين قالوا ﴿يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾(٢) فإن افتروا كلاما كتاباً عربياً فصيحاً فماذا يعملون فى الإخبار عما مضى كما أخبر القرآن .

فكيف يفترون القصص السابق ويوجد كما هو فى الكتب المنزلة ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾(٣) أى فمثل هذا لا يمكن أن يفترى ؟ ومن أين يتأتى لهم الإخبار عما سيكون فى المغيبات ، وكم معجزات من القرآن أخبر بها قبل وقوعها فوقعت كما أخبر؟! فمن أين ينصبون سلالم الكهانة كذلك ويأتون به ؟!

ولما كانت المراتب السابقة الثلاث الأولى فيها بعض المشقة لكونها طلب فيها القرآن كله ، والأخريان لكونهما مقترنين بالدعوة

(١) القصص / ٤٤ .
(٢) يوسف / ٧ .
(٣) يوسف / ١١١ .

إلى الإيمان بها ، ومن آمن بها لزمته أحكامها وتكاليفها من صلاة وصوم قال لهم فى هذه الآية ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم﴾(١) أى ائتوا بمن يشهد أنها من عند الله ولا يؤمن بها حتى تلزمه أحكامها فتكفى الشهادة منه بالتوراة والإنجيل أنها من عند الله . فإنه شهادة منا أنهما حق . ولا يلزمنا أحكامهما بل كانت لأهلهما قبل نزول القرآن . فلم يأتوا بشىء ، فقال لهم الله ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾(٢).

وهذه معجزة أخرى فنفى عنهم الفعل فى الحال والمستقبل وكان كما أخبر فلم يأت أحد بشىء إلى وقتنا هذا .

وقوله ﴿فِي رَيْبٍ﴾ أبلغ من أن نقول (وإن ارتبتم) لما فيه من الإشارة إلى أنهم متفاوتون فى الريب . ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ أبلغ من أن يقول فيما نزلنا لأنه يمكن الإتيان بشىء يسير أي وإن كنتم مرتابين فى شىء منه لا فى كله فأتوا بسورة .

وقوله ﴿عَبْدِنَا﴾ أتى به دون رسولنا لأنهم ينكرون الرسالة فخاطبهم بالعبودية التى لا ينكرونها وهى أشرف أسمائه صلى الله عليه وآله وسلم لما فيها من الذل الكامل لسيده.

والعبد يعظم قدره على قدر تواضعه لسيده فلذلك أطلقها

(١) البقرة / ٢٣ .
(٢) البقرة / ٢٤ .

الحق عليه فى أشرف أوقاته وهى ليلة الإسراء فقال ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾[1] فلو كان فى تلك الليلة اسم أشرف لخاطبه به ، والذل هو الوصف الموجب للنصر ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[2] يعنى أذلة لله ومن أجله لا لغيره ، وأما الكفار فأعزة عليهم كما قال الله : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[3] وكانت العرب شأنها البلاغة فى الكلام ، وأرسل الله رسوله بالقرآن وجعله معجزته الكبرى، وإن كانت له معجزات غيرها .

وقوله ﴿إن كنتم صادقين﴾ ليس معناه إن كنتم صادقين فى أنكم مرتابون ، إذ الريب لا يوصف بالصدق بل راجع إلى ما رجحوه فى عقولهم من أنه ليس من عند الله ، وأنه تقوّله ، لأنهم يترددون فيقولون تارة من عند الله وتارة من عند بشر آخر وتارة يقولون : تقوّله .

ولهذا كل رسول يعطيه الله معجزة من جنس ما عليه قومه . فلما كان فى بنى إسرائيل السحر أرسل الله إليهم موسى باليد البيضاء والعصا تنقلب حية ، فاجتمع السحرة فأعجزهم وذلك فى قول الله ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[4] وهو يوم الزينة وكان عاشوراء ، وما عمل الميقات موسى إلا بإذن الله .

(١) الإسراء / ١ .
(٢) آل عمران / ١٢٣ .
(٣) المائدة / ٥٤ .
(٤) الشعراء / ٣٨ .

وكانت السحرة ثمانين ألفاً ، وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ؟ واجتمع خلق لا يحصون ، إذا كان هكذا فما بالك بالمتفرجين والجيش الذى سيقطع أيدى ثمانين ألفاً وأرجلهم ويصلبهم به كما هو ، وقد أنطق الله فرعون بحقيقة حال السحرة قبل أن تظهر فقال لهم : ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[1].

وكذلك كان فصاروا فى حينهم أولياء مقربين فجمعوا كيدهم وصاروا صفا واحداً وجاء موسى وهارون صفا يقابلون الثمانين ألفاً أيضاً ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾[2].

صارت العصي والحبال تتحرك من السحر الذى عملوه فيها ويتخيل للناظر أنها تسعى ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[3] خاف أن يلتبس الحق بالباطل حيث أتوا بشىء وهو يأتى بشىء فيظن الناس أنهم سواء ، وإلا فلو خاف من سحرهم لما قال له الحق ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾[4] إنما تأخذ السحر من الحبال والعصى فنتركها حبالا وعصيا على أصلها فلا يرى فيها ذلك التحرك ، ويزول تخيل أنها تسعى فهى تأخذ ما صنعوا وهم ما صنعوا العصى فإنها صنع الله ولا الحبال فإن الحبل نفسه ليس سحراً صنعوه .

(١) الشعراء / ٤٢ .
(٢) الشعراء / ٤٤ .
(٣) طه / ٦٧ .
(٤) طه / ٦٨ ، ٦٩ .

وقد بين الحق صنعهم فقال ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾[1] فأخذت ذلك الكيد فقوله ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[2] معناه ابتلعت السحر من الحبال والعصى وتركتها حبالا وعصيا على أصلها ، وإلا لو ابتلعتها وهى على حالها تتحرك لسرى الاحتمال إلى أنه ساحر أكبر منهم جاء بسحر عظيم ، فالمعجزة فى إبطال سحرهم لا فى ابتلاع عصيهم وحبالهم ولأنه يمكنهم أن يأتوا بسحر آخر يعارضون به .

وقوله ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾[3] لم يقل سجدوا لأنهم لم يسجدوا باختيارهم ، بل الحق هو الذى ألقاهم فهم مأخونون عن أنفسهم لا بتدبرهم فى ذلك ، فكان عين ابتلاع العصى لسحرهم هو عين زوال الحجاب عن قلوبهم ، فصاروا فى الحين أولياء شاهدين فلذلك غابوا عن الحور والقصور وقالوا : ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[4] ولم يقولوا: والآخرة خير وأبقى .

وقولهم ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[5] لما كان يمكن أن يصرفه فرعون عن ظاهره ويقول لهم رب العالمين قالوا ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾[6] وإلا لكان قولهم رب العالمين كافياً ثم توعدهم وقال :

(١) طه / ٦٩ .
(٢) الأعراف / ١١٧ .
(٣) الشعراء / ٤٧ .
(٤) طه / ٧٣ .
(٥) الشعراء / ٤٧ .
(٦) الشعراء / ٤٨ .

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾[2] أي لا ضرر علينا فى ذلك. لأن القتل يجمعنا على حبيبنا وذلك قولهم : ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾[3] أي ذلك التعذيب والقتل يجمعنا عليه وقالوا له: ﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4] فهى حقيقة فيهم فهم عن أنفسهم قائلون ذلك بربهم عن ربهم ، وهذا أمر لا تأتى العبارة إليه بشىء وإنما هى أحسن من السكوت .

وفعل فرعون بالسحرة ما توعدهم به فكان يأتى بالواحد منهم فيقطع يده ويقول له : إن رجعت تركناك وإلا قطعنا رجلك ثم صلبناك فلا يرجع ، ويقول له : لا ضير ، فيقطع رجله فيقول كذلك فيصلبه هكذا حتى انتهى إلى آخرهم فلم يرتد واحد منهم لأن إيمانهم كان إيماناً شهوديا عيانياً ولو كان على الغيب ما ثبتوا هكذا .

فتبين أن المعجزات والخوارق لا تجىء بإيمان ، وإنما هى إقامة حجة . فلا يؤمن أحد إلا إذا أن للإيمان أن يسكن فى قلبه ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾[5] يعنى أوجبه وأثبته كقوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[6]

(١) الشعراء / ٤٩ .
(٢) الشعراء / ٥٠ .
(٣) الشعراء / ٥٠ .
(٤) الشعراء / ٥١ .
(٥) المجادلة / ٢٢ .
(٦) البقرة / ١٨٣ .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ ﴾ (١) ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾(٢) فلا عوارض تزيله ولا خوارق تزيده ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾(٣) إلى أن قال ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾(٤) وقال الله ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾(٥) وقال الله ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾(٦) ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾(٧).

ولا فرق بين أن يكون خرق العادة خارجاً عن نفسه أو فيها فإنهم لما قالوا ﴿ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾(٨) قال الله ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾(٩) أي بأنفسهم فضلا عن رقيك أنت ﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾(١٠)

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ﴾(١١) هذا أبلغ من أن يقول فإن لم تأتوا لأنه يعم ما يأتون به من عند أنفسهم وغيرهم .

---

(١) البقرة / ١٧٨ .
(٢) البقرة / ٢١٦ .
(٣) الحجرات / ٧ .
(٤) يونس / ١٠٠ .
(٥) يونس / ١٠١ .
(٦) الأنعام / ١١١ .
(٧) الأنعام / ٧ .
(٨) الإسراء / ٩٣ .
(٩) الحجر / ١٤ .
(١٠) الحجر / ١٥ .
(١١) البقرة / ٢٤ .

والخطاب راجع إلى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾(١) وإلى المخاطبين بقوله ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾(٢) وقوله ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾(٣) وكذلك.

والمراد نفس الأمرين مع الإتيان بالسورة والشهادة فلم يأتوا بشيء منهما ولن يأتوا به . وقوله ﴿ فاتقوا النار ﴾ أي بلا إله إلا الله فهي كلمة التقوى ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ ﴾(٤) وهو أبلغ من أن يقول آمنوا لما فيه من التخويف .

وقوله ﴿ وقودها ﴾ وقودها بفتح الواو أى الحطب ، وأما الوُقود بضم الواو فهو الإيقاد فعل الفاعل الذى هو المصدر ، وجهنم لا حجر فيها ولا حطب بل هم حطبها وأصنامهم ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾(٥) والنار هى حار منضغط بعضه فى بعض ، وهى بنفسها تحرقهم واتقادها المروى فى حديث « أوقد عليها ألف عام حتى اسودت » هو عين إيجادها، فليس أنها يلقى فيها حطب فتوقد به .

وقوله ﴿ الحجارة ﴾ التى عبدت من دون الله والشمس والقمر والكواكب وفائدة إدخالها أنه يحرقهم بعين ما عبدوه فيصير ما

---

(١) البقرة / ٨ .
(٢) القرة / ٢٣ .
(٣) االبقرة / ٢٤ .
(٤) الفتح / ٢٦ .
(٥) الأنبياء / ٩٩ .

عبدوه معذباً لهم بنفسه وهو حينئذ يصير من جنس النار ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[1] الآية فالذهب والفضة من جملة الحجارة التى يعذبون بها وقوله ﴿أعدت﴾ أي هى صورت لهم من سابق لا النار تخلق لهم يوم القيامة بل هى موجودة .

وقال الله أيضاً ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[2] يعنى فى الدنيا.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالساً مع أصحابه فقال لهم : إن حجراً ألقى من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن بلغ فيها ، وهم سمعوا هذه فما لبثوا يسيراً أن سمعوا صيحة فى بيت رجل من المنافقين مات فعدوا عمره فإذا هو سبعين سنة، وكان هو الحجر المشار إليه.

فأصحاب جهنم هنا وهم فيها فى عين كونهم هنا ، وكذلك أصحاب الجنة وقد رآها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليلة أسرى به، وكذلك نقلت له فى هواء وصاح شوقا فقال للصحابة: (دنت منى جنتى إنها كادت أن تمس ثيابى وذلك حين رأيتمونى تأخرت) ودنوها منه صلى الله عليه وآله وسلم ليصفها لأمته عن عين يقين وقال : (دنوت من الجنة وذلك حين رأيتمونى تقدمت وقال: حتى هممت أن آخذ عنقوداً من ثمارها ولو أخذته لأكلتم ما بقيتم) وكذلك أن ثمار الجنة لا مقطوعة ولا ممنوعة.

(١)التوبة / ٣٥ .

(٢) التوبة / ٤٩ ، والعنكبوت / ٥٤ .

ومعنى ذلك أنها لا تمتنع من آخذها ولا تفقد فى محلها وتنفصل عنه ، بل فى عين أخذها هى باقية كالسراج إذا أردت أن تأخذ منه قبسا خذ منه وهو باق فى أصله لا ينعدم ، فأنت أخذت منه وانتفعت ولم يحصل بذلك نقص .

فمن أجل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «الناس شركاء فى ثلاثة: الماء والنار والكلأ» .

قال الحق تعالى فى معنى ذلك لبعض المقربين : أرأيت إن كنت فى مغارة ومعك ماء والناس محتاجون إليه وأنت غير محتاج إليه ومنعتهم من أبخل منك ؟ فقال لا أحد . فقال له : أفأمنعهم رحمتى وهم محتاجون إليها وأنا غنى عنها .

وقوله ﴿للكافرين﴾ ولم يقل لكم لأنه ثبت كفرهم فصرح به وهى راجعة إلى ﴿ومن الناس﴾ .

* * *

قوله تبارك وتعالى : ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1] المخاطب يفسر بعبادنا على سبيل الالتفات ، والتبشير : الإخبار بالخبر الذى يؤثر فى البشرة

(١) البقرة / ٢٥ .

من باب قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من أسر سريرة ألبسه الله رداءها» .

فتارة فى الخير وهو الأكثر وهى البشاشة التى تظهر على بشرة صاحبه ، وتارة فى الشر كقوله ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] لرؤية الحزن فى وجوههم والمراد بأن الذين آمنوا هم المتقون الذين قال فيهم ﴿لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2] لأنه لما ذكر جزاء المرتابين . ناسب أن يذكر جزاء الذين لم يرتابوا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المراد به ما يعم الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات من الرجال والنساء.

والمراد بالظالم لنفسه فى كلام الله الذى قصر ظلمه على نفسه بأن أطال قيامها وصيامها وأجهدها وأتعبها بالأعمال الشاقة فلم يرحها ، وهو وإن كان محموداً ولكنه يطلق عليه لأنه ظلمها حقها فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «إن لنفسك عليك حقاً» .

وليس الظالم الذى يظلم الناس قلنا لك لم يطلقه بل قيده بقوله (لنفسه) ، وأما الظالم لغيره فذلك لا يحبه الله والله لا يحب الظالمين ومن لا يحبه لا يبشر ، وهو الذى لم يتخلص من هواه من جميع الوجوه وإن قام بالعبودية لكونه يقوم فيا بنفسه فلابد أن

(١) آل عمران / ٢١ .

(٢) البقرة / ٢ .

ينقص عليه شيء ، والسابق هو الذى قام بالعبودية بربه فإن كان ربه سمعه وبصره وسائر قواه فهو المقرب ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[1] ولم يقل المتقربون.

لكن هو الحق الذى قربهم فهم مأخوذون عن أفعالهم ، وأما المتقربون فهم أصحاب اليمين سواء كانوا مقتصدين أو ظالمين لأنفسهم ، والظالمون الظلم المطلق هم أصحاب الشمال فالآية جاملة الكل ولكن بشارتهم بحسب مقاماتهم فمنهم من الجنات فى حقه جنات معارف ومنهم من الجنات فى حقه جنات زخارف .

والمراد بالإيمان المذكور فى حديث جبريل عليه السلام (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالقدر خير وشره) فهو غير عمل الصالحات فلذلك عطف عليه .

وأقل العبادة التى يدخل الإنسان بها الجنة إقامة الفرائض . أما ما وراء ذلك فهو من الربح ، فإذا اقتصر على الفرائض ورضى بذلك القدر كان كافيا ، والصلاح ضد الفساد لأن الإنسان يتجر فى المال ليزيده ، وإذا كان كذلك فرأس المال محفوظ معه ويطلب الربح ، وأما من ضيع رأس المال فالربح أضيع إذ الربح لا يعد ربحاً إلا بعد حصول رأس المال ، وقوله ﴿أن لهم﴾ حذف الباء لتعجيل المسرة ، وقوله ﴿لهم﴾ تلذذ بأن ذلك ملكهم فهو

(١) الواقعة / ١٠ ، ١١ .

يقول لهم: الجنات لكم ، ما لأحد تفضل عليكم بل هى أعمالكم فلا منة عليكم فى ذلك وهو معنى ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[1].

فإن الإنسان إذا كان الشىء ملكه تكمل لذته فيه أكثر من كونه عارية عنده ؛ لأن ملك الغير فى النفس منه شىء هذا حال الغالب ، ولو فهموا أن نسبة الأشياء إلى الحق أولي وأن العبد يتلذذ بالشىء على أنه ملك لسيده أتم وأكمل فى اللذة من كونه ملكا له لأن ملكه على حسب صفته وملك سيده على حسب كمال السيد، فشتان بين الملكين .

وقوله ﴿جنات﴾ نكرها لكونها نكرة فى عين تعريفها فإنها وإن كانت معروفة فى الجملة فهى مجهولة فى التفصيل.

وفى الحديث : «فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» .

(١)الانشقاق / ٢٥ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الضحى

سبب نزول هذه السورة هو انحباس الوحى وقول المشركين إن محمدا قلاه ربه كما حرر فى أسباب النزول.

(والضحى) : ها هنا هو النبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإنما سماه الله ضحى لأنه خلق من نوره [1] تعالى كما جاء إن الله تعالى قبض قبضة من نوره فقال لها كونى محمداً فكانت والضحى هو ارتفاع الشمس عن القامة وهو فرد من أفراد النور لأن النور يكون أنواعا مختلفة وهذا منها .

وإنما اختار هذا الفرد من بين الأنوار لأن وقت الضحى هو أشرف حالات الشمس التى تكون عليها من السناء والصفاء والاستنارة ، وبين النبى وبين الشمس مناسبة ظاهرة من حيث إن الله تعالى جعل الشمس سراجا وجعل النبى صلى الله عليه وآله

(١) من الثابت والمعروف أن الله تعالى «ليس كمثله شىء» أما قوله «من نوره» فهو نور خاص خلقه الله تعالى وقال لهذا النور كن محمداً فكان - وقلت العبارة بصيغة الملكية أى نور" خلقته وهو ملكى كقول الرجل قلمى وكتابى وسيارتى .

وسلم سراجا فقال تعالى جل جلاله فى ذلك :﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾[1] .

فلما كان بينه صلى الله عليه وآله وسلم وبين هذه هذا الاتصال بشهادة القرآن أطلق عليه أشرف حالاتها وأجل صفاتها قال جل وعلا ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾[2] . قال أرضاه الله تعالى فى عطف الليل على والضحى إشارة إلى الإسراء ، وارتفاع النبى صلى الله عليه وآله وسلم إلى ذلك المقام ، ودنوه إلى قاب قوسين أو أدنى ، فإنه تعالى لما ذكر النبى صلى الله عليه وآله وسلم بأنه مخلوق من نوره أتبعه بتذكيره أمر الإسراء والقرب والوصال .

والسر فى القسم بهذين الأمرين أن يكون القسم فى نفسه دليلا وبرهانا على المقسم عليه وهو قوله تعالى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾[3] وذلك أن من كان مخلوقا من نور حبيبه فهو بمنزلة الجزء منه وقد وقع بينه وبينه من القرب والوصول مالم يقع لغيره من أبناء جنسه ، وأنه يبعد كل البعد أن يقلى وأن يهجر لا لذنب ولا لسبب، فمعنى هذا القسم فى نفسه بشارة للنبى صلى الله عليه وآله وسلم وتبيين وتأمين وهذا من مخزون الأسرار ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[4]

(١) الأحزاب / ٤٥ ، ٤٦ .
(٢) الضحى / ٢ .
(٣) الضحى / ٣ .
(٤) المؤمنون / ١٤ .

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾[1] قال الشيخ [2] أرضاه الله: الآخرة هنا صفة للحال الآخرة من حالة الوحى وهى الواقعة قبل الانقطاع .

وذلك لأن العلة والحكمة فى انحباس الوحى هى التعطش له والترغيب فيه لأننا بخبر ما كثر وتوالى من المحسوسات إذا لم يملّ فأقل أحواله أنه لا يطلب أى لاتتشوق إليه النفوس ، وما جاء بعد فقده كان له من اللذة والحلاوة ماليس فى الأول وتلك مشاهدة بشهادة الوجدان .

وقال جل ذكره : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾[3] . قال الشيخ أرضاه الله تعالى : قيل إن هذه الآية أرجى آية فى القرآن ، وكذلك قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم، قال : (لا أرضى وواحد من أمتى فى النار) وكلام النبى من المعلوم أنه صدق لا يمكن تخلف مخبره وكلام الله تعالى كذلك.

والحاصل أنه لا يرضى الله تعالى إلا لخروج جميع الأمة ورضاه واقع قطعاً ، وإذا أردت أن تبرزه بالبرهان العقلى وتصوره قياسا منطقيا كان هكذا : خروج الأمة من النار يرضى النبى صلى الله عليه وآله وسلم، ورضى النبى صلى الله عليه وآله وسلم واقع لا محالة ، وهذا من الشكل الأول .

(١) الضحى / ٤ .
(٢) هو السيد أحمد بن أدريس .
(٣) الضحى / ٥ .

ودليل الأول : قوله صلى الله عليه وآله وسلم : لا أرضى .

ودليل الثانى : قوله تعالى : (فترضى) ينتج من هذا : خروج جميع الأمة من النار واقع لا محالة .

قال تعالى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ﴾ (١) .

قال سيدى أحمد بن إدريس رضى الله تعالى عنه : اليتيم هنا هو الذى لا نظير له على حد قول البوصيرى :

حبذا عقد سؤدد وفخار أنت فيه اليتيمة العصماء

وإنما كان يتيما بهذا المعنى لثبوت المزايا السابقة من بين أفراد جنسه من خلقه من نور الحق ورفعه إليه ودنوه فى الظاهر والله تعالى أعلم وأكرم.

إن معنى قوله : يجدك على هذا يوجدك من الإيجاد لا من الوجود أى ألم يخلقك فرداً بلا نظير . (فآوى) الفاء للسببية خلقك من نوره واتصالك به آواك إليه أى ردك إليه فأنت منه إليه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ﴾ (٢).

ضلال النبى (٣) عليه الصلاة والسلام عن قدر نفسه ، وحيرته

(١) الضحى / ٦ .

(٢) الضحى / ٧ .

(٣) قال سيدى العارف بالله تعالى الشيخ صالح الجعفرى رضى الله تعالى عنه «ووجدك ضالا فهدى» أى وجدك متحيراً فى حب خالقك ومولاك فهداك إلى خير السبل . قال أخوة يوسف لأبيهم «إنك لفى ضلالك القديم» أى فى حبك القديم ليوسف .

فى معرفة خلقه وعنصره (فهدى) أي هداك للمعرفة بنفسك وهذا من أعظم الهدى ، لأن الشخص إذا جهل قدر نفسه فربما وضعها حيث يستحق الرفع ، أو رفعها حيث يستحق الوضعَ فيترتب عليه مفاسد لا تخفى ، وإذا عرف قدرها تصرف فيها بحسب المراد لمولاه ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً ﴾(١) أي فقيرا إليه تعالى ﴿ فَأَغْنَىٰ ﴾(٢) أي أغناك به تعالى .

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ (٣). لما ذكر اليتيم سابقا ناسب أن يرشد نبيه إلى التخلق مع اليتامى بما تخلق الله تعالى به معه .

﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ ﴾ أي السائل عنا والمتعرف برحمتنا وفضلنا ﴿ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ (٤) أي فلا تقنطه ولا تيئسه بمعنى أنك رغبت فينا فنلت فضلنا.

﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ (٥). شوِّقهم إلينا وأخبرهم عنا وعن أصلك الذى هو أصلهم لعلهم يأنفون من الميل إلى حضيض السوى ، ويرفعون رؤوسهم إلي حضرة جمالنا فيميلون إلينا ميل الفرع إلي أصله ، فيعشقوننا ، وحب الوطن من الإيمان ، ولا وطن لقبضته النورية التى قال لها كونى محمدا ، وخلق أجسامهم بيديه وما أرسل الله الرسل إلا ليحببوا عباد الله فى الله تعالى

(١) الضحى / ٨ .

(٢) الضحى / ٨ .

(٣) الضحى / ٩ .

(٤) الضحى ١٠ .

(٥) الضحى / ١١ .

ويحببونه فيهم ويرغبونهم فيما يحبهم الله عليه من الأعمال والأخلاق ويذكرونهم بأيادى الله عندهم وصنائعه لديهم ، ويشفعون لدي الله فيهم ليقبلهم ، كهيئة المصلح بين العبد وسيده سواء بسواء ولا يوقفونهم مع الخوف منه ، لأنه لا يخاف المرء إلا من عدوه ، وما هنالك إلا الحبيب ، بل يحذرونهم من موجب غضبه بقدر ما تمس الحاجة إليه كوضع الملح في الطعام لا غيره ، عما قليل تزجره ولكن إذا أعطيته المزجر فليكن بقدر ما يعطى الطعام من الملح ؛ لأن الخائف كثير التلفت ، والمحب يجد السير وهو سباق وفي المثل : الخائف سيار والمحب طيار ، وخوف العبودية للربوبية لازم لا ينفك وهو وحده كاف لمن عقل والله تعالى الموفق وعليه التكلان .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ألم نشرح

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[١] قال سيدى أحمد بن إدريس رضى الله تعالى عنه : هذه السورة عظيمة جدا وهى وسورة الضحى سورتا النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ألم للتقرير وثبوت نعمة الشرح التى أهى أعظم نعمة وذلك من وجهين :

الأول : إيتاؤه إياها .

والثانى : ابتداء من الحق بلا سبق طلب منك ، ففرق بينه وبين موسى عليهما الصلاة والسلام حيث لم يعطه ذلك إلا بعد طلب بقوله : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾[٢] فهو يقول : غيرك لم يعط إلا بعد طلب ، وأنت ابتدأتك بالعطاء اعتناء بك، والشرح يطلق على التوسيع وعلى البيان .

فعلى الأول : ألم نوسع لك صدرك بنورنا حتى وَسِعَنا ، وفى الحديث القدسى (لم يسعنى سمائى ولا أرضى ووسعنى قلب عبدى المؤمن التقى النقى الورع الموقن) ولا عبد مؤمن أتقى وأنقى وأورع منه صلى الله عليه وآله وسلم

(١) الشرح / ١ .

(٢) طه / ٢٥ .

وعلى الثانى : ألم نبين لك حقيقتك أي بقولنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [1] فأبنّا - أى أظهرنا - لك أن حقيقتك هى حقيقتنا وعنصرك هو نورنا ، والصدر أيضاً يطلق على القلب وهو المناسب للشرح بمعنى التوسيع ، ويكون مصدر أصدر وعليه : ألم نبين لك أن صدورك أى بروزك من عندنا وقبضة من نورنا فقلنا لها كونى محمدا فكانت ، وإذا عرفت ذلك عرفت نفسك ، ومن أين أنت ومن أين أصلك وحينئذ فلا أصل . أأصل منك . ولا أشرف لكونك من نور الله ليس غيره ، فلا أعظم من الله ولا أعظم ممن هو منه نوره ، وهنا معنى غدق عبق يبعد عن العقل ولا يأتى به اللسان إلا أن يفتح الله الباب حين يذاق من حضرة الوهاب وإلا فلا عبارة تبلغه كما هو .

وقوله: عز وجل ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾[2] الوزر: الحمل ، ومنه ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[3] والمراد به ما كان يقاسيه عند نزول الوحى عليه في ابتداء الأمر فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يرغو عند نزول الوحى عليه كما يرغو البعير لثقل الوحى عليه كما قال الله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[4] .

---

(١) الفتح / ١٠ .
(٢) الشرح / ٢ .
(٣) النحل / ٢٥ .
(٤) المزمل / ٥ .

وقوله ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [1] أي أثقله وأظهر ذاته كلها لكونها كانت فى ضعف المخلوقين فتثقلها الأشياء ، فإن العبد إذا كان بنفسه كان ضعيفا كائنا ما كان ، وفى الحديث المرفوع من دعائه صلى الله عليه وآله وسلم (فإنك إن تكلنى إلى نفسى تكلنى إلى ضعف وعورة وعجز) أو كما قال .

فهو يعنى بذلك من حيث مخلوقيته ، وأما إذا كان بربه فهو قوى وهو لتحققه بالتقوى به سبحانه وسريان القوة الإلهية فيه حينئذ يتلقى من الله بالله وتلقيه به ، والمعنى زالت مخلوقيتك[2] بالرجوع إلى أصلك الأول الذى هو النور الإلهى، ولما ذهبت ظلمة المخلوقية ذهب ما يترتب عليها من الكلف وجميع لوازمها.

وقوله عز وجل : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[3] أي بقولنا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾[4] لا كما قال بعض المفسرين : لا أذكر إلا وتذكر معى ، فإنه معنى هزيل ضعيف جداً بالنسبة لما ذكرنا من أن المراد عين ذكر الله .

وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أي الذين يرونك

---

(١) الشرح / ٣ .
(٢) قال سيدى الشيخ صالح الجعفرى : ومعنى زالت مخلوقيتك أي أوصاف بشريتك وظهرت فيك أوصاف النور المخلوق الذى خلقك الله منه لأن المخلوقية لا تزول ولأن الله لا يخلق من نور ذاته القديم شيء اهـ .
(٣) الشرح / ٤ .
(٤) الفتح / ١٠ .

إنما يرون الله، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من رآنى فقد رأي الحق » والحق هو الله . قال الشيخ صالح الجعفرى : والمعنى فكأنما رأي الحق – أى رأى صورتى الحقيقة التى خلقنى الله عليها لأن الشيطان لا يتمثل بى – اهـ .

ومن أعظم النعم على هذه الأمة قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (من رآنى فقد رآنى فإن الشيطان لا يتمثل فى صورتى) وأولياء الله تعالى من أمته يرونه دائماً ، والناس يرونهم ، فقد حصل للعامة الخير الكثير برؤية من يراه ، كما قيل : (لعلى أراكم أو أرى من يراكم) . بل منهم من يتصبن بصابون طاعته الشرعية ولم يتصبغ بلونه حتى يصير هو هو ، وذلك من فتح الله له باب المكالمة بينه وبينه من باب الولاية لا من باب الرسالة والنبوة فإنه ختم بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا مزاحمة ، فمن أنكر مكالمة الله بما هو وهجر حقيقة الحال فليس كذلك ووقائع الأولياء تفسر ذلك .

قال بعض الأولياء : وقع لى مشاهدة تجل إلهى فقلت للحق يا رب بم نلت هذا الخير الذى أنا فيه ؟ فقال لى بمحبتك لعبدى هذا يعنى شيخه ، فقلت له وبم نال عبدك هذا ما نال ؟ قال : بمتابعته رسولى وزادنى الحق من عنده بلا سؤال منى : ورسولى نال ذلك برحمتى .

واجتمع بعض الأولياء المقربين فى وقتنا هذا بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم . فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: ما لكم تزهدون فى كلامى ومجالستى . فقال له : من يزهد فى كلامك ومجالستك يا رسول الله ؟ قال مجالسة فلان هى مجالستى وكلامه هو كلامى . يعنى بذلك بعض المحققين به والمنصفين من ورثته فى عصرنا هذا ، وهذا هو الخير الجسيم الذى لا خير مثله فإن الله يقول : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾(١) .

قال الله عز وجل : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾(٢) أي لما جاهدت فينا وأنت خلق أوصلناك إلينا وجعلناك حقا ، فخرجت من عسر المخلوقية وسجنها إلى يسر الربوبية وإطلاقها .

قال العارف بالله تعالى سيدى الشيخ صالح الجعفرى: أى إلى التسليم لله تعالى أهـ .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾(٣) أى سبل جميع أسمائنا فيدخلون علينا من كل باب ، وأنت سيدهم المحيط بهم كلهم.

قال الله عز وجل : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾(٤)

---

(١) الانفال / ٣٣ .
(٢) الشرح / ٥ .
(٣) العنكبوت / ٦٩ .
(٤) الشرح / ٧ .

المعنى الأول : فإذا فرغت عمن سواه بأن فرغ به قلبك عن الأغيار فاذكرنا ناصبا نفسك منصبا لها فى طلبنا ، إذ لا يصح فى العرف أن يجعل الخل فى الإناء المملوء زيتا حتى يفرغ وينظف فإنه يفسد كقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾[1] أي نسيت غيره.

والمعنى الثانى : فإذا فرغت من تجل أشهدناكه بأن شربته ذاتك وتنوقت ما فوقه فانصب مهيئا لطلب ذلك الفوق ، فإن تجلياتنا متراكمة عليك تراكم أمواج البحر فلا تنفصل ، فنحن مفيضون عليك على الدوام ولا يقطع عنك أبدا فكن متلقيا سرمدا.

وقوله : ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾[2] أى لا تقنع فإن القناعة من الله حرمان بخلاف الدنيا فهى[3] محمودة بل كن مشتاقاً إلى جمالنا وتجليات كمالنا دائما أبداً سرمداً والتعبير بـ (إلى) بأن الحق لا نهاية له ولا غاية لمجموع ما حصل للعبد منه فهو بالنسبة إلى ما لم يحصل شىء تافه يسير ، وكأنه الآن ذاهب إليه لم يكن فى شىء من تجلياته ﴿ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾[4] وهو يقول : أي إبراهيم ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[5] .

(١) الكهف / ٢٤ .
(٢) الشرح / ٨ .
(٣) أى القناعة من الدنيا .
(٤) النساء / ١٢٥ .
(٥) الصافات / ٩٩ .

فكابر الرسل والأنبياء و الأولياء كلهم كأنهم لم يحصلوا شيئًا بالنسبة إلى ما عند الله من المشاهدة العقلية ، فالحق لا يتناهي ، وهم لا يروون ، إنما يزيدهم ما وجدوه عطشا وهياما .

قال بعض الأولياء فى عصر أبى يزيد : شربت كأسا لا أرتوى بعدها أبداً .

فسمع ذلك أبو يزيد فقال : هنا من يحثو بحار الكون كلها وهو فاتح فاه ويستزيد ..

وفى ذلك قيل :

شربت الحب كأسا بعد كأس فما نفد الشراب وما روينا

وتبارك وتعالي الله رب العالمين ، وهذا بعض الكلام على هذه السورة العظيمة ، والله الفتاح ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله .

﴿ انتهى ﴾

وسئل رضى الله تعالى عنه : عن قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[1] إلى آخرها؟

فأجاب : هم الذين يصلون وقلوبهم مشتغلة بغير الله سبحانه وتعالى، انظر إلى المصلى إذا توجه إلى غير الكعبة هل تصح

(١) الماعون / ٤ ، ٥ .

صلاته ؟ كذلك إذا توجه بقلبه إلى غير الله تعالى، بل توجهه بقلبه أحق من أن يتوجه بقالبه إلى الكعبة. فوصفهم سبحانه وتعالى بأنهم عن صلاتهم ساهون ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾[1] يعنى يصلون بقوالبهم لا بقلوبهم يراءون والرياء هو الشرك ، نسأل الله السلامة والعافية ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[2] وهو الإناء، يعنى أنه سبحانه وتعالى خلق الإنسان وخلق قلبه إناء له سبحانه وتعالى فمنعه وشغله بغيره وكذلك جميع الذات لم يخلقها الله تعالى إلا ماعونًا: أى إناء لذكره وعبادته ، بدليل قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[3] وقوله تعالى لموسى ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[4] فإذا منعتها مما خلقت له وشغلتها بغير ما خلقت له فأنت ممن يمنع الماعون ، ومافسر المفسرون فى الماعون داخل تحت هذا المعنى فإن يعقوب عليه الصلاة والسلام لما اشتد حبه ليوسف والقلب لا يسع إلا الواحد فرقه عنه تأديبا له ، ثم خفى عليه وهو فى الجب بالقرب منه لما أراد أن يفرقه عنه ، وحين أراد اتصاله به وجد ريحه من مصر إلى كنعان ، فسبحان القادر لا إله إلا هو . كذلك إبراهيم عليه الصلاة و السلام لما عظم فى قلبه حب إسماعيل وذلك لكونه بشر به وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر ،

(١) الماعون / ٦ .
(٢) الماعون / ٧ .
(٣) الذاريات / ٥٦ .
(٤) طه / ٤١ .

فبلغ به الحب إلى الغاية ، فبلاه الرب جل وعلا بذلك البلاء العظيم وهو ذبحه له فسلم غاية التسليم ثم فداه الله سبحانه بذبح عظيم، وهذا كذلك لكون القلب لا يسع إلا الواحد ، مع كونه قد عظم حب إسماعيل فابتلاه بذلك ليخلى قلبه له جل وعلا . والذبيح إسماعيل بلا شك ، لا كما قيل هو إسحق لثلاثة أدلة :

الأول : أن الله سبحانه وتعالى ذكر قصة الذبيح إلى آخرها ثم قال : ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾[1] وذلك الترتيب فى كتاب الله تعالى تقتضى الحكمة فيه ذلك.

الثانى : أن إسحق لم ينقل أحد ولم يسمع أنه سكن مكة بخلاف إسماعيل ، فالنص القرآنى ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[2] ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾[3] والذبح وقع بمنى .

الثالث : أن الله سبحانه وتعالى بشر إبراهيم بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب فى حالة واحدة ، ولو كان إسحق لما صح الابتلاء وهو يعلم أن فى صلبه يعقوب كما بشره الله به .

* * *

وسئل رضى الله تعالى عنه : عن قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[4] .

(١) الصافات / ١١٢ .
(٢) البقرة / ١٢٥ .
(٣) البقرة / ١٢٧ .
(٤) البقرة / ٢١٩ .

قال : العفو : هو أن تعفو عمن أساء اليك ، وإذا كنت كذلك فقد اتصفت بصفة من صفات الله تعالى ، فحق عليه أن يعاملك بما اتصفت به ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[1] لا كما قيل : من أن العفو وهو ما فضل من القوت ، بل قال الله تعالى ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[2] ومنه ذلك العفو لأنه أحب ما يكون إلى الإنسان سيما عند احتياجه إليه فى يوم القيامة ، والقرآن يخدم بعضه بعضا .

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه : إن **(كان)** إذا دخلت على اسم من أسماء الله تعالى فإن عملت فى الاسم الرفع وفى الخبر النصب فلا تسمى ناقصة تأدبا ، إنما يقال لها الحرف الرافع للاسم الناصب للخبر ، وإذا لم تعمل سميت التامة ، وكذلك الذى تسميه النحاة زائداً لا يقال له فى القرآن زائد، بل تحته معنى نحو قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا ﴾[3]. بقيت ما هنا النافية لتؤدى معنى ، وهو أن يبقي فى الإثبات شم من النفى لأنهم ما جاءوها هم باختيارهم ، إنما سيقوا إليها ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾[4]. فبقيت النافية لتؤدى هذا المعنى .

(١) الأنعام / ١٣٩ .
(٢) آل عمران / ٩٢ .
(٣) فصلت / ٢٠ .
(٤) الزمر / ٧١ .

وكذلك قولهم فى قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾[1]. إن من هنا زائدة ، وليس كذلك تعالى الله ، بل لا يستقيم المعنى إلا بها ، لأن قوله ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾[2] أى من مثل عبدنا ، فالضمير راجع إلى عبدنا ، ولا يصح المعنى إلا بها ، فتأمل .

وكذلك قوله تعالى ﴿ إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾[3]. فهى وإن كان المعنى للثبوت لكن أتى بالنافية هنا ليبقى شم وهو يؤدى معنى أنهم غير واثقين بالتقوى منهم ، وذلك شأن المؤمن ، فانه ورد فى حديث بعض السلف أنه عرف كذا عددا من الصحابة كلهم يخشى على نفسه النفاق ، ذكره البخارى ، فتأمل فائدة الإتيان بما ،

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه : فى قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾[4]. أتى سبحانه وتعالى بلفظ أقيموا ولم يقل صلوا ، وذلك لأن الصلاة كالأعضاء وسائر الجسد ، والخشوع روحها ، فإذا حصل الخشوع والحضور مع الحق جل وعلا صارت قائمة لأن الشيء لا يقوم إلا إذا كان له روح، وأما إذا

(١) البقرة / ٢٣ .
(٢) البقرة / ٢٣ .
(٣) المائدة / ٩٣ .
(٤) البقرة / ٤٣ .

لم يكن له روح فهو ملقى هناك مرمىً لا روح له يقوم به ، بل لا يقدر على الحركة، وقوله : ﴿آتُوا الزَّكَاةَ﴾ ومثله قوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾(١) ﴿وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾(٢) مع أنه جل وعلا ملك الآخرة والأولى وله الأمر في الابتداء والانتهاء ، لكنهم لما ادعوا أن لهم فى الدنيا ملكا ولهم فيها أمرا سلم لهم على دعواهم سبحانه ما ألطفه تبارك وتعالى ، ساجلهم سبحانه وتعالى على دعواهم لأنهم ادعوا أن لهم مالاً فقال سلمنا ، وعليكم منه الزكاة وهو العشر أو نصف العشر أو ربع العشر ، مع أنه قد قال سبحانه وتعالى ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾(٣) ولهذا لم يملك الأنبياء شيئا لعلمهم أن ليس لهم شيء ، فما فى أيديهم جميعه لله، هم وغيرهم فيه سواء.

قيل إن أحمد بن حنبل والشافعى كانا قاعدين ، إذ مر شيبان الراعي فقال أحمد بن حنبل إنى أريد أن أسأل شيبان سؤالا ، فقال له الشافعى : لا تفعل قال : لابد ، قال : دونك إياه ، فقال : أحمد بن حنبل : يا شيبان فى كم الزكاة من الغنم ؟ فقال : على مذهبكم أم على مذهبنا ؟ فقال : أو هما مذهبان ؟ قال : نعم ، قال أفتنى بهما ، فقال : أما على مذهبكم ففى الأربعين شاة شاة ، وأما على مذهبنا فلا يملك العبد مع سيده

(١) الفاتحة / ٤ .
(٢) الانفطار / ١٩ .
(٣) النور / ٣٣ .

شيئا ، فالجميع حق الله تعالى ؛ وسأله أيضا عن المصلى إذا سها فى الصلاة بزيادة أو نقصان بم يصلحها ؟ فقال : على مذهبنا أو على مذهبكم فقال أجبنى على كلا المذهبين فقال : على مذهبكم يجبر بالسجود . وعلى مذهبنا هذا قلب غافل يجب تأديبه ، فخر أحمد مغشيا عليه.

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه : كل مقدم فى القرآن فهو الأهم بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما رقى الصفا : أبدأ بما بدأ الله به ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾(١) فإن تأخر الأهم فلنكتة .

وقال رضى الله تعالى عنه : فى العناية من الله سبحانه ببعض عبيده لما قال الكهنة والمنجمون لفرعون : إنه يكون خراب ملكك على يد ولد من بنى إسرائيل فأمر بذبح الأبناء ، فلما ولدت أم موسى ألقته فى البحر خوفا عليه من الذبح ، فالتقطته امرأة فرعون وقالت له ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾(٢) فقال فرعون : قرة عين لك ، فلو سكت لكان قرة عين لهما، ثم لما أخذته امرأة فرعون أبى أن يقبل ثدى مرضعة ،

(١) البقرة / ١٥٨ .
(٢) القصص / ٩ .

ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾[1] فرده الله إلى أمه وكانت نفقتها عليه ، وتربية موسى على يد فرعون. وأما السامرى فلما خافت أمه عليه الذبح ألقته فى كهف فى جبل ، فتولى جبريل عليه السلام تربيته وصار بعد كافرا ، وفى ذلك يقول الشاعر :

فموسى الذى رباه جبريل كافر

وموسى الذى رباه فرعون مرسل

كذلك سحرة فرعون جاءوا فى أول النهار يريدون أن يدحضوا حجة الله بالباطل ، وهذا شر أي شر ، فما غربت شمس ذلك اليوم إلا وقد صاروا فى أعلى مراتب الإيمان ، فإنه لما بعث فرعون فى المدائن حاشرين ليأتوه بكل سحار عليم ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾[2] .

أجرى الحق سبحانه وتعالى ذلك على لسان فرعون هو أنه واقع لهم الأجر من ربهم ، وكانوا عنده من المقربين ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾[3] .

(١) القصص / ١٢ .
(٢) الشعراء / ٤١ ، ٤٢ .
(٣) الشعراء / ٤٣ ، ٤٤ .

فلما رأي موسى عليه الصلاة والسلام ذلك خاف كما فى آية طه ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾[1] وذلك الخوف ليس هو من ذلك السحر وهو كون الحبال والعصى صارت حيات ، ولكن خاف أن يلتبس الأمر على من لم يعرف ، فقال سبحانه وتعالى ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾[2] .

ليس أنها ردت الأشياء التى خيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، وهى الحبال والعصى ، إذ لو كان كذلك لكان لهم مدخل فى قدح الحجة بأن يقولوا : سحره أعظم من سحرنا فالتقمت عصاه حبالنا وعصينا ، وكما أن بعض أنواع الحيوانات يأكل بعضها بعضا ، فإن الحوت الكبير يأكل الصغير وكذلك الطير ولكنها أبطلت السحر .

فإذا العصى والحبال ملقاة هناك لم تتحرك ، بل حبال وعصى على أصلها ، فلم يبق لهم عذر ، ولحقهم الخزى والفضيحة على رءوس الأشهاد لما صارت كذلك، فما بقى إلا أن ألقى السحرة سجدا : أي ألقاهم الله سبحانه وتعالى ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ

(١) طه / ٦٧ .
(٢) طه / ٦٨ ، ٦٩ .

وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾[1] أي : على الذى فطرنا وقدم البينات هنا علي الذى فطرنا لكونها السبب ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[2] ولم يقولوا والآخرة خير وأبقى ، أو والجنة خير وأبقى، وذلك لقوة إيمانهم قد تعلقت قلوبهم بالله سبحانه وتعالى .

فانظر كيف جذبتهم العناية فى أسرع وقت ، اللهم عناية من عندك يا رب العالمين .

* * *

وسئل رضى الله تعالى عنه : عن **(التوكل)** فقال : قال الله سبحانه وتعالى ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾[3] وذلك أنهم علموا أن النصر لا يكون إلا من الله تعالى ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ﴾[4] فوكّلوه وفوضوا ولم يعترضوا ، لأن الموكّل لا يعترض على الوكيل إلا لأحد أمرين :

(١) طه / ٧٠ : ٧٢ .
(٢) طه / ٧٢ ، ٧٣ .
(٣) آل عمران / ١٧٣ ، ١٧٤ .
(٤) التوبة / ٢٥ .

إما أن يكون متهما للوكيل بنوع خيانة ، أو أنه ليس عالما بالمضار من العدو فيدفعها ، أو غير عالم بجلب المنافع لموكله فيجلبها، وكل ذلك غير مجوز على الله ، تعالى الله علواً كبيرا، فلما صدقت الوكالة له جل وعلا لم يتّكلوا علي كثرة ولا اكترثوا من قلة فنجاهم من عدوهم ونصرهم عليهم .

وفى يوم حنين يقول الله تعالى فيهم ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾[1] .

وذلك لأنه أصابهم ما أصابهم لأنهم اتّكلوا على أنفسهم فوُكلوا إليها فانهزموا ولم يبق إلا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فعمت المصيبة جميع الصحابة ، ولم يتكلم بتلك الكلمة إلا البعض وهى قولهم : لن نغلب اليوم من قلة ، فانظر إلى هذه المصيبة أصابتهم من الله سبحانه وتعالى ، لكنها في الحقيقة من أنفسهم ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[2] ثم انظر إلى الحسنة ما تكون إلا من عند الله ابتداء ، فانك إذا فعلت الحسنة فمن أقدرك عليها ؟

لك الحمد يا ربى على كل نعمة

ومن أعظم النعماء قولي لك الحمد

* * *

(١) التوبة / ٢٥ .
(٢) النساء / ٧٩ .

وقال رضى اللّه تعالى عنه : من لطف اللّه تعالى وحسن خطابه لعبيده يقول لهم فى الجنة ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾[1] ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2] وجميع ما أسلفوا هو نعمة اللّه سبحانه وتعالى ، لكن لما كان الخطاب بأنه مقابل لما أسلفوا ارتفع المنُّ ، وكأنهم هم الذين جلبوا لنفوسهم تلك النعمة بما أسلفوا ، وذلك من تمام نعمته سبحانه وتعالي ، فإن الإنسان إذا حصلت له نعمة يرى أن سببها سعيه عظمت لذاتها عنده ، فما امتنَّ سبحانه وتعالى عليهم فى هذا ، والمِنَّة له ، فما أكرم هذا الرب تبارك وتعالى ، فذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[3] مع أن المعنى غير مقطوع ، بل على حاله ، واللّه تعالى أعلم .

* * *

وقال رضى اللّه تعالى عنه : لما كان يوم بدر نصر اللّه سبحانه وتعالى رسول الله صلى اللّه عليه وآله وسلم وجنوده ، وشاور النبى صلى اللّه عليه وآله وسلم أصحابه فى أمر الأسرى، لأن اللّه تعالى أمره بقوله ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ [4] فأجمع

---

(١) الحاقة/ ٢٤ .
(٢) الطور / ١٩ .
(٣) الانشقاق / ٢٥ .
(٤) آل عمران .

الصحابة رضى الله تعالى عنهم على أخذ الفداء إلا عمر رضى الله تعالى عنه فإنه أشار بقتلهم ، فعاتب الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾[1].

والنبى صلى الله عليه وآله وسلم ما عمل بمشورتهم إلا بأمر الله سبحانه وتعالى حيث قال : ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ وقد أجمع رأيهم على الفداء إلا عمر رضى الله تعالى عنه ، ثم هو مأمور بالعفو ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ﴾[2] وهو من خلقه عليه الصلاة والسلام المجبول عليه، والله سبحانه أمسك الوحى فى تلك الحالة ليقضى أمره ، ثم بعد نزلت آية العتاب ، ثم بعدها ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[3] والكتاب الذى سبق هو قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[4] وهو سبحانه تعالى لا يخلف الميعاد ، ثم النتيجة قوله تعالى لأهل بدر (اعملوا ما شئتم فإنى قد غفرت لكم) ثم لما سبق فى قضائه من سعادة العباس وعقيل ومن أسلم منهم ، فلما كملت آية العتاب قال تعالى ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[5] تابعهم سبحانه وتعالى على

---

(١) الأنفال/ ٦٧ .
(٢) المائدة / ١٣ .
(٣) الأنفال / ٦٨ .
(٤) الأنفال / ٣٣ .
(٥) الأنفال / ٦٩ .

حسب مرادهم لأن الغنائم فيما سبق كانت تنزل نار من السماء تأخذها ، فأحلها الله لهذه الأمة من ذلك الحين ، والغنائم أحلت لهذه الأمة، إن الله جعل زينته والطيبات من الرزق فى الدنيا، وفى يوم القيامة للذين آمنوا ، فاغتصب الكفار عليهم من التى فى الدنيا ، والمغتصب عليه له أن يأخذ حقه أينما وجد، إما بتسلق أو جهارا أو خفية ، كذلك ما اغتصبه الكفار علي الذين آمنوا فلهم أن يأخذوه بأى وجه هو لمن سبق إليه ، وأما ما كان فى يوم القيامة فهى للذين آمنوا لا يقدر عليها غاصب ولا يشاركهم فيها مشارك . قال سبحانه وتعالى﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[1] فهى لهم فى الدنيا لا لغيرهم . ثم قال ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

* * *

وسئل رضى الله تعالى عنه عن قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[2].

فأجاب بما معناه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ صدقوا فاتصفوا بصفاتنا وخلقوا بأخلاقنا ، فإن الله سبحانه هو المؤمن ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

(١) الأعراف / ٣٢ .
(٢) الأعراف / ٤٢ .

، التى بلغوا بها إلى مقام «كنت سمعه وبصره » إلى آخره فإنا جعلنا فيهم قوة وقدرة على عمل الصالحات التى يبلغون بها إلى هذا المقام ، فإنا لا نكلف نفسا إلا وسعها ، فلم يأمرهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم «تخلقوا بأخلاق الله» إلا وهو يعلم أنه أقدرهم على ذلك .

وفى هذا تلميح إلى أن الله تعالى خلق آدم على صورته - أى صورته التى كان بها فى الحياة الدنيا وليس المقصود صورة الحق سبحانه وتعالى - فمن بلغ هذا المقام ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ ، والجنة جنتان : جنة المعارف، وجنة الزخارف ، فلا التفات إلى جنة الزخارف لمن كان من أصحاب جنة المعارف ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فى الدنيا والآخرة، جعلنا الله منهم بفضله آمين .

* * *

وسئل رضى الله تعالى عنه : عن قول الله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[1] .

فأجاب بما معناه : أى أنها تعبد الله تعالى مأمورة بذلك ، قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[3].

(١) الأنعام / ٣٨ .
(٢) الإسراء / ٤٤ .
(٣) النحل / ٤٩ .

فهى مخاطبة بأمرين : أحدهما عبادة الله ، والآخر تسخرها للإنسان . فإنه ذللها سبحانه لبنى آدم ، وجعل منها متوحشا كالسبع ليعرف ما قد ذل له منها ، فهى أمم أمثالنا تعبد الله وتوحده وتمجده وكذلك الجمادات فإنها تعبد الله وتسبحه .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾(١) وقال سبحانه وتعالى فى قصة داود عليه السلام ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾(٢) .

ففى الحديث : «إن الأرض تلبى إذا لبى الحاج إلى أن تتقطع من كل جهة ، والمؤذن يشهد له كل رطب ويابس إلى منتهى صوته». وهل فى الأرض إلا رطب ويابس .

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه : إن الحصى التى سبحت فى كف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هى كذلك فى كل حالة ، وإنما هو كشف الحجاب عن مسامع الصحابة فسمعوها ، فكانت من خرق العادات ، وقوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾(٣) إلى ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾(٤) أى : تشهد للعباد وعليهم ،

(١) الحج / ١٨ .
(٢) سبأ / ١٠ .
(٣) الزلزلة / ١ .
(٤) الزلزلة / ٤ .

فكل بقعة تشهد بما صنع فيها العبد ولا تشهد بما شهدت به بقعة أخرى ، كالأذن لا تشهد بما رأته العين ، لأن ذوقها غير ذوق العين ، وكذلك سائر الأعضاء والجوارح ، فما من شىء فى الدنيا إلا وهو شاهد بالتوحيد يسبح بحمد ربه .

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه : سخر الله سبحانه وتعالى جميع ما فى السموات والأرض لبنى آدم وهى جميعها ليست مفتقرة إلى ابن آدم أبدا ، وابن آدم مفتقر إلى جميع ما فى السموات والأرض ، فالله سبحانه وتعالى أعطى ابن آدم قبل سؤاله ، وإنما سؤاله بلسان الحال لا بلسان المقال ، فجميع ما سأل من كل ما هو مفتقر إليه قبل وجوده ، ثم خلقه سبحانه وتعالى وأوجد أرزاق المسخرات له فهو رأس المخلوقات وسنامها ، ولولاه ما خلقت المخلوقات ، ولا دار الفلك.

فالشمس وجميع الكواكب فى منفعته والدواب جميعها في منفعته ، وما توحش منها كذلك لأن بتوحشها يعرف قدر المسخرات ، وما نزل من السماء كذلك ، وجميع ما يخرج من الأرض والملائكة يستغفرون لهم ، فالإنسان يذنب والملائكة تنوب عنه ، فقسم سبحانه ذكر الملائكة بينه وبين ابن آدم قال :

﴿ يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾[1].

ثم زاد فى كيفية استغفارهم ودعائهم لهم ، فقال سبحانه وتعالي على ألسنتهم : ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ﴾[2] إلي قوله ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾[3] .

فهم يستغفرون للذين تابوا ، وهم يشفعون لمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، وأسجدهم له وهو فى صلب أبيه ، فابن آدم له عند الله عز وجل هذا الشأن ، وخلق من أجله جميع المخلوقات فسخرها له وخلقها له وهو يعبد ما خلق من أجله ، ويعرض عمن خلق له ، فكيف هذا السقوط من الثريا إلى الحضيض ، نسألك اللهم عافيتك ، اللهم اشغلنا بعبادتك عن عبادة من سواك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

ثم الجمادات كالأحجار والأشجار والأرض جميعها تدعو لبنى آدم ، وتستغفر لهم وتشهد لهم بأعمال البر كتلبية الأرض إلى منتهاها للملبى بالحج، وشهادة كل رطب ويابس للمؤذن إلى منتهى صوته ، وغير ذلك مما لا يحصى ، فسبحان الكريم ما أكرمه على عبيده .

* * *

(١) غافر / ٧ .
(٢) غافر/ ٧ .
(٣) المائدة / ٩٣

وقال رضى الله تعالى عنه فى قوله تعالى : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين ﴾[1] فكرر لفظ اتقوا ثلاثا ، ولفظ آمنوا ثلاثا ، وقال فى آخرها: وأحسنوا مرة واحدة : أي إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليس عليهم جناح فيما طعموا من الطيبات من الرزق ، ثم كلما طعموا زادهم إيمانا وتقوى ، وإذا كان الأكل للطيبات بالنية على تقوية الأعضاء للطاعة زادك إيمانا وتقوى ؛ لأن الصحابة منهم من حرم الدسم ومنهم من حرم النكاح ليتفرغوا للعبادة .

ثم قال تعالى : ﴿ ثم اتقوا وأحسنوا ﴾ أي أن الإحسان مقارن للتقوى والإيمان .

وفى الحديث : « إنه نزل جبريل عليه السلام على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وتؤمن بالبعث قال : ما الإسلام ؟ قال : الإسلام : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، قال : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : ما الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

(١) المائدة ٩٣ .

فإذا كان الإحسان مقارنا للإيمان والتقوى فقد صار وليا فقد أحبه الله ، وإذا أحبه الله فقد صار سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ولسانه الذى ينطق به كما يليق بجلاله سبحانه وتعالى : ﴿ألا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وكيف يخافون ويحزنون ، وقد صار الحق منهم بهذه الصفة.

قال الشاعر :

هم الذخر للملهوف والكنز والرجا

ومنهم ينال الصب ما هو طامع

بهم يهتدى للعين من ضل فى العمى

بهم يجذب العشاق والربع شاسع

وقال رضى الله تعالى عنه : فى قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[1] على حذف مضاف : أي أصحاب الكوثر ، وهم المؤمنون الذين هم أولاد النبى صلى الله عليه وآله وسلم كما فى إحدى القراءات (وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) .

والكوثر هو النهر الذي فى الجنة ، عدد أقداحه عدد نجوم السماء ؛ لأن الكفار قالوا : إن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أبتر ، أى لا نسل له ، وإنه ينقطع ملكه ولا له بنون يقومون بملكه ، فنزلت ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ .

---

(١) يونس / ٦٢ .

أي أصحاب الكوثر قاموا بعده بحق الإسلام وقفوا فيه على آثاره إلى الآن ولله تعالى الحمد .

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[1] أي اجعل هذا القول فى نحر أعدائك .

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾[2] وأنجز الله سبحانه وتعالى قوله، وهو أن لا يبقى الآن فى الآفاق جميعا ذرية لأبى لهب ولا لأبى جهل، ولا لأحد ممن مات منهم وهو كافر .

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه : قال الله تعالى ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾[3] إن العقبة بلغة العرب : هى الجبل الوعر المسالك الذى لا يصعد إليه إلا بمشقة .

ثم قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾[4] أي عقبة هى ؟ ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾[5] والرقبة هنا منكرة لتقتضى الشمول لكل رقبة محبوسة ، إما فى دين فيقضى عنها فيفكها ، أو نفس وجب عليها القصاص فيفكها ، أو ضال يهديه فيفك رقبته من حبس الضلال أو غير ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾[6] أي ذى جوع والمراد المُطْعَم وهو الجائع وإن كان غيره شبعان ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[7] .

---

(١) الكوثر / ١ .
(٢) الكوثر / ٢ .
(٣) الكوثر / ٣ .
(٤) البلد / ١١ .
(٥) البلد / ١٢ .
(٦) البلد / ١٣ .
(٧) البلد / ١٤ .

اليتيم على قسمين :

أحدهما : الملتجئ إلى الله تعالى لا يصافى أحدا غيره ولا يصادق ولا يحب إلا الله ، أو فى الله فهو يرى وجود أبويه وعدمهما على حد سواء ، وهذه أعلى رتبة ، فهو يتيم وإن بلغ سن الشيخوخة.

الثانى : اليتيم عن أبويه أو أحدهما ، ولا يكون يتيما إلا ما دام لا يمكنه التكسب .

والمسكين على قسمين :

الأول : هو المتمسكن إلى الله تعالى . أى الذى لا يسكن إلا إلى ربه فهو ملازم حضرته فلا يأنس إلا إليه ، وهذا هو الذى قال فيه الصادق المصدوق صلوات الله عليه وعلى آله: «اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين» وهذا هو أعلى درجة .

الثانى : هو اللاصق بالتراب .

ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾[1] كان هذه من قوله « ثم كان من الذين آمنوا » تامة ، يعنى تستغرق الزمان ماضيا وحالاً ومستقبلا : أي بقى مؤمنا حتى مات كما قال تعالى

(١) البلد / ١٥ ، ١٦ .

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[1] ولم يقل من عمل الحسنة ليكون معناها: من جاء يوم القيامة بالحسنة ولم تحبط ، ومن جاء بالسيئة ولم تمح.

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[2] قال : هذه الآية من المخوفات التخويف العظيم ، لأن **(إنما)** للحصر ، ومن ذا يكون متصفا بهذه الصفة ؟! فإنه قيل لبعض الأولياء وهو الحسن البصرى كيف تجد إيمانك ؟ فقال : أومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره ، وأما أنى ممن ذكر الله (إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) إلى آخرها فلا أدرى، والذكر هو باللسان والقلب ، والاعتبار بالعين لقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي ﴾[3] فهو ذكر هنا بالعين ، فان الاعتبار فى العالم ذكر وهو أعظم الذكر .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ المراد الآيات القرآنية والعالمية ، أى إذا نظرت إلى مخلوقاته زادتك إيمانا، لأنها آيات تتلى عليك ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ

(١) البلد / ١٧ ، ١٨ .

(٢) الأنعام / ١٦٠ .

(٣) الأنفال / ٢ .

النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1] .

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾[2] الإنسان يلقى منيه ولا يدرى أين صار ، فَيُوَكِّل الله به ملكا خلق من سر الخالق البارئ المصور يضعه فى قرار مكين. أى لم يخن فى شىء منه بل يحفظه غاية الحفظ ، ثم يكون علقة أشد من النطفة، فإذا كان كذلك استأذن الملك ربه يقول: رب هل قد وفى أجله افتزلق ، فإذا هو لم يصل أجله يقول لا أنقله مضغة، فيصير مضغة وهى أشد من علقة .

فيستأذن الملك ربه كذلك فيشق جل جلاله بصره وسمعه ويخلق فيه الأعضاء حتى يصير فى الصورة الإنسانية فيبرز إلى الوجود وليس له عقل يعقل به ، ولا فهم يفهم به ، ولا نطق يتكلم به بما يريد ، فيجوع ويعطش وهو لا يحسن الكلام فيصيح .

وذلك الصياح يدعو به ربه دعوة مضطر فيجاب فى الحال والسرعة فيوجد الله له اللبن فى ثدى أمه ، حتى لو أنها أرادت أن تدفعه وترده ما أمكنها ، ولو أرادت وجوده قبل أن يولد المولود ما أمكنها ، فياليتنا كنا كذلك مجابين الدعوة في الحال ، ثم يوجده

(١) الكهف / ١٠١ .

(٢) البقرة / ١٦٤ .

سبحانه وتعالي سائغاً ليس يحتاج إلى مضغ لكون الطفل بلا أسنان يمضغ بها .

ولا يحتاج إلى هضم لأن معدته غير قوية على الهضم ثم يجد فيه الرى والشبع ، فيستغنى عن الماء والطعام لأنه لا يقدر أن يطلب عند عطشه ماء ، ولا عند جوعه طعاما فيهديه إليه ويهوى إليه لا إلى عضو غيره.

ثم يلهمه المص على تلك الكيفية سبحانه وتعالى ، ثم لا يزال ينمو ولا ينظر عيانا لأن كل شىء إذا مددته بعد أن كان متحيزاً لابد أن تنظر لمده تأثيراً فى طوله وعرضه ، وأما هذا النمو فهو فى كل حالة لا يزال ينمو هو جملة وكل عضو من أعضائه وهو لا يدرك ثم يتولد معه التدبير ، وكلما زاد معه التدبير نزع الله الشفقة من قلب أبويه بقدر ذلك .

فإن أمه فى أول الأمر لا تستطيع أن تفارقه ساعة ، ثم بعد ذلك قد تفارقه اليوم واليومين ، ثم قد تفارقه بعد أن يكمل تدبيره الزمان كله ، فلو لم يدبر له أمرا بل رضى بالله تعالى كفيلا كما كان أولا لكفاه كل مؤنة ، وتيسير ما هو موجود أهون من إيجاد ما هو معدوم باعتبار عقل الإنسان .

ألا ترى أنك قد تهتم بتيسير قوت يومك وهو موجود على ظهر الأرض ، وتيسيره أهون من إيجاد اللبن من العدم من بين فرث ودم، حسبنا الله ونعم الوكيل.

* * *

وسئل رضى الله تعالى عنه : عن قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾[1].

فأجاب : الجهالة هنا هى أن يعمل السوء وهو جاهل بحق الله تعالى ، لا أنه جاهل أنه سوء ثم لما علمت بالله وعلمت أنه عندك حاضر لا يغيب، وأن السيئة الصغيرة فى جناب من عصيته كبيرة وأي كبيرة ، وعلمت بطشه وصدقت وعده ووعيده وتبت من قريب ، تاب الله عليك ما لم تغرغر بالموت ، فإن تبت قبل أن تغرغر فقد تبت من قريب .

فأتى الله سبحانه بـ (على) فى قوله ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى وجبت لأنه لو قال من الله أو لله فلا تؤدى هذا المعنى ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾ فذلك لا ينفع.

ثم قال رضى الله تعالى عنه : واعلم أن الإنسان فى كل حالة مخاطب بالموت ، قال تعالى ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾[2]

(١) النساء / ١٧ ، ١٨ .
(٢) الواقعة / ٦٠ .

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1] قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم (ما مددت بصرى إلا وظننت الموت يبتدرنى قبل أن يرتد إلىّ طرفى ، وما التقمت لقمة إلا وظننت الموت يبتدرنى قبل أن أسوغها) هذا أو معناه ، ومن هنا ارتفع حكم التسويف والأمل.

قال تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ﴾[2] وقال تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾[3] الآية . فالأمد والأمل بمعنى واحد ، وهو الذى يجوز أن يكون له فيه توبة ولا يتوب ولا يعلم أن الموت فى كل حالة يطلبه لقول الصديق رضى الله تعالى عنه :

كل امرئ مصبح فى أهله

والموت أدنى من شراك نعله

وقال رجال لبعض الأولياء لما رأوه لا يتكلم معهم فى خوضهم: لم لا تتكلم معنا إنا نحب حديثك ؟ فأجاب : الحالة التى تحب أن تكون عليها عند الممات كن عليها فى جميع الحياة . فانظر إلى هذه الكلمة التى تلحق بالمعجز ، لأنك إذا رأيت الأمير النافذة أوامره إذا قيل له تموت غدا هل يبقى من أمره ذلك :

(١) لقمان / ٣٤ .
(٢) الحجر / ٣ .
(٣) الحديد / ١٦ .

احبسوا فلانا ، قيدوا الفرس ، جهزوا الجيش ، أم ينتظر الموت ويرتقب له ويتهيأ له ، دائما متذكرا لسيئاته ، قد يذهل عمن عنده ولا يتكلم بشيء مما جرت به عادة .

وكذلك غيره من أهل الصناعات والزراعة والتجارة إذا قيل له تموت غدا لا يشتغل بشيء من ذلك الذى هو فيه سابقا ، بل يشتغل بالتأهب للموت ، فانظر معنى هذه الكلمة.

* * *

وسئل رضى الله تعالى عنه عن قوله : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[1] أي إن الأبرار لفى نعيم فى الدين لأنهم فى هدى والهدى نور والنور وجود والوجود هو الله ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ لأنهم فى ضلال ، والضلال ظلمات ، والظلمات عدم فيحيون بإحياء الله . والأولون بحياة الله تعالى ، وليس من كانت حياته بإحياء الله ، كمن حياته بحياة الله ، وأنى وأين فوجودهم كعدمهم وإن كانوا فى الظاهر فى نعمة.

ألا ترى أن الملك إذا كان حزينا بموت ولده أو بنصر عدوه ربما كان فى بستان أنيق بين نور وشقيق ، وفى يده مفاتيح الخزائن ، وبين يديه الخيل الصوافن ، تتهادى له الجوارى ، وينزه طرفه فى ظلال زهوه ، ويتيه فى تصور زخارفه ولهوه ، ولكن قلبه

---

(١) الانفطار / ١٣ ، ١٤ .

فى نار الحزن ، وعينه مطلقة للوسن ، قد عاف الطعام والشراب وضاقت عليه الفسيحات من الرحاب .

قال تعالى ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[1] الآية ، وقال تعالى فيمن عداهم ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[2] وقال تعالى ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[3].

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه فى قول الله لرسوله ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾[4] إن من هنا للتبيين ، وقال تعالى بعد أن عدد الرسل فى سورة الأنعام ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾[5] واستثنى سبحانه وتعالى واحدا منهم فى أمر مخصوص فقال ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾[6].

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه فى قوله تعالى فى قصة يوسف ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾[7] أي همت

---

(١) النحل / ٩٧ .
(٢) طه / ١٢٤ .
(٣) السجدة / ٢١ .
(٤) الأحقاف / ٣٥ .
(٥) الأنعام / ٩٠ .
(٦) القلم / ٤٨ .
(٧) يوسف / ٢٤ .

فيما هو همُّها ، فإنها قد عرضت من قبل ليوسف تعريضات فما بلغت ما تريد ، فلما لم يمكن إلا التصريح صرحت به ، فراودته عن نفسه صريحا ، وهو عليه الصلاة والسلام هَمَّهُ الخلوص منها ، فَهَمَّ – لما غلقت الأبواب (وقالت هيت لك) ، وما بقي منه بد – بالتخلص منها بقتل أو بضرب أو بما يدفعها عنه ، لأن ذلك همه لولا أن رأي برهان ربه ، والبرهان الذى رأى هو صورة امرأة العزيز ، لأنها برهان لصانعها جل وعلا ، لأن البرهان للشيء هو الدلالة عليه، وذلك معنى قول أبى بكر رضى الله تعالى عنه : ما رأيت شيئا إلا ورأيت الله قبله ، ومعنى :

وفى كل شيء له آيةٌ تدل على أنه الواحد

فألهمه سبحانه وتعالى أن يدرأ بالتى هى أحسن ليصرف عنه السوء والفحشاء بذلك التخلص وهو الهرب ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾[1] وقد كان يوسف أراد أن يكلمه عند أن ألفياه ، لكنه رد أمره إلى الله سبحانه ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] أشارت عليه بالسجن خوفا عليه من القتل عند الغيرة كما تفعله الملوك ، فلما تكلمت بذلك دافع عن نفسه فقال ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾[3] .

* * *

(١) يوسف / ٢٥ .
(٢) يوسف / ٢٥ .
(٣) يوسف / ٢٦ .

وسئل رضى الله تعالى عنه عن قوله تعالي ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾[1] .

فأجاب : إن لها وجوها ، لأن الله سبحانه وتعالى لا يتحيز، فكذلك كلامه لا يتحيز فى معنى ، ومن حيّزه فى معنى فهو لقصور علمه وفهمه ، فأحد وجوه تفسيرها : هل جزاء الإحسان من الله ابتداء إلا الإحسان منه انتهاء؟ أي ما ابتدأ سبحانه وتعالى من العطاء لا يسترجعه لأنه حرم ذلك على عبيده ، فما ظنك به جل جلاله وهو بالإحسان بادئ حاشاه يختم بالإساءة .

ولكن إذا نزعت عن الإنسان نعمة أنعم الله عليه بها فإنما هو لكونه لم يقبلها ، فإذا ألبسه الله حلة قد يلبسها أياما ثم يلقيها فى الساعة وقد لا يقبلها ، فيقال له أعطيناك حلة فلم تقبلها نحن نعطيها غيرك ، أي نعمة كانت نعمة دين أو نعمة دنيا ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[2] ابتدأ كل إنسان بالإسلام لأن كل مولود يولد على الفطرة فلم يقبله البعض بل تهود أو تنصر ، وعلى هذه غيرها من جميع النعم.

* * *

وسئل رضى الله تعالى عنه عن تفسير قول الله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾[3] فأجاب: إن (ويل) واد فى جهنم مخصوص

(١) الرحمن / ٦٠ .
(٢) النساء / ٧٩ .
(٣) الهمزة / ١ .

جعله الله للأفّاك: أي الكذّاب، وللمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون، وللمطفّفين وللهمّازين اللمّازين، والهمزة واللمزة متقاربان، وهو الذى ينظر فى عيوب الناس التى لا تضره ولم ينظر فى عيوب نفسه التى تضره .

قال تعالى ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾(١) وقال تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾(٢) أى يعيبونك ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾(٣) وهم المتشوفون بقلوبهم لما فى أيدى الناس ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾(٤) وقال تعالى ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾(٥) أي هذا الرجل الملازم على جمع ما فى أيدى الناس ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾(٦) وقد لا يأكل من ماله ذلك لقمة ﴿ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٥ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾(٧) أي مطبقة ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾(٨) وذلك لأن العمود الحديد صار نارا ، والنار لا تفارقه وذلك أشد فى العذاب ، نسأل الله العافية والسلامة .

* * *

(١) القلم / ١١ .
(٢) التوبة / ٥٨ .
(٣) التوبة / ٧٩ .
(٤) التوبة / ٥٨ .
(٥) الهمزة / ٢ .
(٦) الهمزة / ٣ .
(٧) الهمزة / ٤:٨ .
(٨) الهمزة / ٩ .

وسئل رضى الله تعالى عنه عن الشرط الذى فى قوله تعالى ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾(١) .

فأجاب : إن الآية تحتمل معنيين : أحدهما قصر الصلاة من رباعية إلى ثنائية ، والآخر عدم التطويل ، لأنه ثبت أنه كان يحصل لبعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم حزن بعدم التطويل .

وفى بعض الأحاديث « أن اثنين من الصحابة قام أحدهما يصلى ونام الآخر ، فجاء العدو ورماه بسهم فسهم اثنين أو ثلاثة ، فقال النائم للمصلى : هلا أيقظتنى ؟ قال : كنت فى سورة طويلة فخشيت أن أقطعها » ومفهوم الشرط معمول به فى هذا المعنى ، وأما على كون القصر من الرباعية إلى الثنائية ، فليس الشرط معمولا به ، بل تقصر الصلاة فى السفر في الأمن .

* * *

وسئل رضى الله تعالى عنه عن قوله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾(٢) .

فأجاب بأن الحكمة هى استعمال العلم فى مجالاته ، وأن

(١) النساء / ١٠١ .
(٢) البقرة / ٢٦٩ .

يجتنب ما نهاه ربه عنه على أحسن حال ، وأن يستعمل مكارم الأخلاق مع جميع خلق الله تعالى .

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه في قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾[1] قال : المذكور فى القرآن قصة واحدة وهى ثلاث قصص :

الأولى : المذكورة فى القرآن وهى قوله تعالى ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[2] وذلك أنه لما جاء الخصمان عند داود عليه السلام حكم عليه داود أن يغرم لصاحب الزرع زرعه فلم يجد ما يغرم صاحب الغنم سوى الغنم ، فغرمها جميعها لصاحب الزرع ، فمرا على سليمان عليه السلام فسألهما عن حكم داود فأخبراه ، فقال: أنا أحكم غير هذا الحكم: الغنم تبقى لدى صاحب الزرع ينتفع بألبانها وصوفها ، وصاحب الغنم يقوم بمؤنة الأرض حتى تعود كما كانت عليه ، وكل واحد منهما يرد لصاحبه حقه ، فقال الله سبحانه وتعالى ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ وداود حكمه ذلك هو عين الصواب لأنه حكم عليه بأن يغرم ما أفسدته أغنامه ، فقدر الذى أفسدته فجاء بقيمة أغنامه فهو عن علم وحكم ، لكن حكم سليمان أخف لأن كل واحد منهما صارت نفسه طيبة بذلك الحكم.

(١) الأنبياء / ٧٩ .

(٢) الأنبياء / ٧٨ ، ٧٩ .

والقصة الثانية : أن امرأتين خرجتا إلى البرية بولديهما صغيرين فجاء الذئب فافترس أحد الطفلين ، فسبقت الكبيرة من المرأتين وقد فقدت ولدها إلى داود ، وكل واحدة ادعت أنه ولدها ، ولكن لما كان فى يد الكبرى حكم لها به لكون يدها ثابتة عليه وذلك عين الصواب فى الحكم ، فمرتا على سليمان فسألهما عن الحكم فذكرتا له فقال : عندى حكم غير هذا ، ثم أخذ الشفرة وقال : نقسمه نصفين لكل واحدة نصفه ، فرضيت بالحكم التى هو فى يدها ، والأخرى قالت : لا تقسمه يا نبى الله هو ولدها قد رضيت بحكم داود ، فعلم أنه ولدها ؛ لأنه أدركها الحنان الذى لا يتفق إلا للأم فحكم لها بالولد .

القصة الثالثة : أنهم جاءوا بامرأة بكر حول فرجها منى ، فأراد داود أن يقيم عليها الحد ، فقال سليمان : ائتونى بنار ، ثم أحمى الذى يزعمون أنه منى على النار فنضج وإذا هو زلال بيض، فتيقن أن ذلك كيد وأنقذها من حكم الجلد .

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾[1] وهى الجمال والكمال ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾[2]

(١) الفتح / ١، ٢ .

(٢) الفتح / ٢ .

وهو سر قوله تعالي ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1] ﴿ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾[2] والنصر العزيز لا يكون إلا لله تعالى.

ثم قال بعد تمام هذه الآية ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾[3] أعاد الضميرمفردا ولم يعده مثنى ، فهنا نكتة بينها قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾[4].

وذلك معنى قوله تعالى فى الحديث القدسى « لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ولسانه الذى ينطق به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها » كما يليق بجلاله تعالى.

تأمل سطور الكائنات فإنها

من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها إن تأملت خطها

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وفى بيعة الرضوان قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم (هذه يد الله ، وأشار إلى اليمنى ؛ وهذه يد عثمان ، وأشار إلى اليسرى ، أو قال اليسار ، ثم وضع إحداهما على الأخرى) .

(١) هود / ٥٦ .
(٢) الفتح / ٣ .
(٣) الفتح / ٨ ، ٩ .
(٤) الفتح / ١٠ .

فظهر معنى ذلك بالفعل فى ارتقاء عثمان رضى الله تعالى عنه على المنبر الدرجة التى كان يرتقى إليها النبى صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن ولى الأمر قال الله سبحانه وتعالى ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾[1] فرقى النبى صلى الله عليه وآله وسلم إلى درجة النبوة ، ثم رقى أبو بكر رضى الله تعالى عنه : إلى الدرجة التى تحتها وهى درجة الصديقين ، ثم رقى عمر رضى الله تعالى عنه : بعده إلى درجة الشهداء وهى التى تحتها.

ثم جاء عثمان رضى الله تعالى عنه فرقى إلى الدرجة التى كان يرقى إليها النبى صلى الله عليه وآله وسلم وذلك فى شطر خلافته الأخرى ليظهر سر وضع يد الله سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله فى يد عثمان عند بيعة الرضوان ، وهم نقموا على عثمان فى ذلك ، ولكنهم لم يعرفوا الحقائق فى الأمور وبالله التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه : تأملت فى قوله تعالى فى قصة سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ ﴾[2]

(١) النساء / ٦٩ .
(٢) ص / ٣٦ .

وقال للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾[1] فلاح لى المعنى بحمد الله تعالى ، فسررت به ، وهو أن الله سبحانه وتعالى تولى أمره جميعه فى جميع أحواله فى حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وسيره ووقوفه ونطقه ، فهو سبحانه بصره ولسانه وسمعه ويده .

قيل لبعض الأولياء وهو أبو يزيد رضى الله تعالى عنه: فوض أمرك إلى الله فقال : ليس لى أمر فأفوضه إليه ، وفرقان بين الأمر من الله سبحانه وتعالى وبين الأمر من العبد.

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه فى قوله تعالى ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[2] وهو جل جلاله إذا أمر بخلق حسن فهو أحق به بدليل (ما كان الله لينهاكم عن الربا ويأخذه منكم) .

فهو أحق سبحانه وتعالى إذا حضر قسمة الرحمة منه سبحانه وتعالى بين خلقه أن يرزق منها من أساء من خلقه وهو أرحم الراحمين لا يحكم على خلقه حكما إلا وهو أولى به جل وعلا.

حين خرج موسى عليه السلام يستسقى بجميع قومه أوحى

(١) آل عمران / ١٢٨ .

(٢) النساء / ٨ .

الله إليه : إن فيكم رجلا نماما خطاء ، فقال: يا رب عرفنى من هو أستتيبه فقال : كيف أنهى عن النميمة وأكون نماما – سبحانه وتعالى ما ألطفه بخلقه ! وأمره أن يأمرهم جميعا بالتوبة فيكون من جملتهم.

وفى الحديث ما معناه : إن الله لا يعذب مسلما تسمى باسم نبى كرامة له من حيث اتحاد الاسم ، ولا يعذب الله سبحانه وتعالى من تسمى مؤمنا يقول : أنا المؤمن وقد سميتكم المؤمنين فقد وافق اسمكم اسمى فادخلوا فى رحمتى ، وهذا أعظم الرجاء، ثم قال : واجعل الخوف فى معادلته فإنه ليس للتسويف هنا مسلك، بل الرجاء يكون أكثر من الخوف لأنه ورد أن المحتضر للموت إذا كان عنده أحد فليذكره بالرجاء وسعة الرحمة.

كذلك الإنسان فإنه فى كل حالة محتضر ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1] فليس للتسويف هنا مدخل ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[2] ومن هنا يتولد التسويف ، يعنى من طول الأمل وهو استبعاد الآخرة لا من الرجاء.

(١) لقمان / ٣٤ .

(٢) الحديد / ١٦ .

قيل لرجل صالح علِّمنى فقال : أجمع لك التوراة والزبور والإنجيل والفرقان فى ثلاث كلمات : أن تخاف الله تعالى خوفا لا يكون شىء أخوف عندك منه ، وترجوه رجاء أشد من خوفك منه ، وأن تحب للناس ما تحب لنفسك . وفى الحديث « أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء ».

* * *

وسئل رضى الله تعالى عنه عن قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾[1] من هو الظان هنا ؟

فأجاب : بأن الظان هو الرجل لا يوسف ؛ لأنه لا يجوز الظن على يوسف عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه أوحى إليه الحق سبحانه وتعالى بتأويل الرؤيا ، والظن لا يغنى من الحق شيئا « وإياكم والظن فإنه أكذب الحديث » فكيف يظن يوسف فيما أوحى إليه ربه سبحانه وتعالى .

وقد غلط المفسرون فى قول الله سبحانه و تعالى ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾[2] أن الظن هنا فى موضع العلم وليس كذلك ، بل الظن هنا فى محله ، والمراد أنهم يظنون فى صلواتهم تلك أنهم ملاقو ربهم فيصلون صلاة مودع ، وهذه حالة المؤمن أنه فى كل حالة يترقب الموت .

* * *

(١) يوسف / ٤٢ .
(٢) البقرة / ٤٦ .

وقال رضى الله تعالى عنه فى تفسير قوله تعالى ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾[1] رحلة الشتاء والصيف هى إتيان الحجيج إليهم: أي قريش فى الشتاء إن كان الحج شتاء ، أو فى الصيف إن كان وقت الحج فى الصيف لأنهم يقبلون إليهم من كل فج عميق ، ويقتحمون الأخطار والمشاق ، يأتون بأرزاق أهل مكة ﴿ يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[2] .

وهذه المنة العظيمة عليهم ، أى غيرهم يسعى إليهم برزقهم مع مشقة عليه وأي مشقة ، يقاسون من الشدة والتعب والبرد إن كان الحج فى الشتاء ، ومن شدة الحر إن كان الحج فى الصيف، وهم ماكثون قاطنون فى أوطانهم كما تراهم الآن .

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾[3] الذى هو السبب فى ذلك.

﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾[4] لا كما ذكر المفسرون من أنها رحلة اليمن والشام يرحل إليهما أهل مكة وهم قريش ، لأن الله سبحانه أراد أن يظهر لهم النعمة التى هم فيها ويعرفهم بها .

(١) قريش / ١-٤ .
(٢) القصص / ٥٧ .
(٣) قريش / ٣ .
(٤) قريش / ٤ .

وأما إذا سافروا بأنفسهم فهم كغيرهم من الناس ، بل يحمل إليهم من محاسن جميع الأرض وهم مقيمون فى أوطانهم يأتيهم بها غيرهم ، وهذه هى النعمة العظيمة التى لا نعمة فوقها.

* * *

وسئل رضى الله تعالى عنه : عن قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾[1] .

فقال: الضمير فى يعلمه يعود إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، والعلماء منهم هم الذين آمنوا بنبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم . وأما الذين لم يؤمنوا به فليسوا بعلماء بل هم أجهل الجهال ، حتى إنه لما نزل قوله تعالى ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[2] قال بعض من آمن بنبينا وهو عبد الله بن سلام رضى الله تعالى عنه ، بعد أن آمن بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم : والله إنا لنعرفه أعظم من معرفتنا لأبنائنا ، لأن أبناء نا قد تخوننا أمهاتهم . فهذه آية لمن كفر وأى آية .

وذلك أن علماء بنى إسرائيل آمنوا به لما علموا أنه رسول الله خاتم النبيين نبى الساعة ، الموصوف عندهم فى التوراة والإنجيل

(١) الشعراء / ١٩٧ : ١٩٩ .

(٢) البقرة / ١٤٦ .

كما قال تعالى ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾[1] أى أن مثل كل منهم فى التوراة والإنجيل ، وكما ثبت أن آدم سأل ربه أن يريه صور بنيه: أي الرسل منهم ، فأراه صورهم ، فصورهم آدم وجعلهم فى خزانة .

فلما وصل ذو القرنين سرنديب أخرج تلك الصور ليجعل لكل نبى تمثالا ففعل ذلك ، ثم إن نفرا من المسلمين رحلوا إلى هرقل فهللوا حتى تحرك البنيان وغلق الأبواب ، فقال لهم هرقل: أهكذا يكون فى بلادكم ؟ قالوا : لا ، وإنما وقع هنا لشىء يعلمه الله ، فقال هرقل : ما أحسن الصدق، فسألهم عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فأخبروه، فعمد إلى الصندوق وجعل يخرج صورا ويقول عند كل صورة : أهذه صورته ؟ وهم يقولون لا ، فلما وافق صورة من الصور قال : هذا نبى الساعة وشأنه هذا ثابت إلي يوم القيامة.

فهذا يدل على أن للنبى صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه

(١) الفتح / ٢٩ .

أمثالا عندهم فى التوراة والإنجيل حتى لا يشكوا فى معرفتهم ، فهم معروفون عندهم بالصفات والذوات فهماً ورؤية ، ولما رأوه بتلك الصفة التى فهموها ورأوها آمنوا به وهم على يقين لا يشكون بل أوضح من الشمس ، فهذه آية لمن كفر .

وقوله ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم ﴾[1] أى القرآن ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى أنهم يعرفون أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من حين ولادته بينهم لم يجالس شاعراً ولا كاهنا ولا أحداً من بنى إسرائيل ، فيقولون: تعلم شعراً أو سحرا أو أخبره بنو إسرائيل بسبب مجالسته لهم ، بل يعرفونه فيهم أميا لا يفارقهم ، فلما أقيمت عليهم الحجة لم يؤمنوا به .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم ﴾ بلسان فصيح (ما كانوا به مؤمنين) وذلك مثل قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾[2] ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[3].

* * *

وسئل رضى الله تعالى عنه عن القاتل هل له توبة ؟ قال : نعم ، قال الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ

(١) الشعراء / ١٩٧ ، ١٩٨ .
(٢) الأنعام / ١١١ .
(٣) الزمر / ٣٦ .

النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1]. فيبدل قتله ذلك كأنما قتل كافرا فى سبيل الله ، وعبادته لغير الله كأنما عبد الله فى تلك المدة ، وزناه كأنه نكح أهله ، وكذلك ما رواه البخارى وغيره فيمن قتل تسعة وتسعين نفسا وحبرا، وقتل الحبر من أعظم البلاء .

وروى أنه بعد أن قتل سبعة وتسعين سأل حبرا ، فقال: لاتوبة لك فقتله ، ثم ثانيا ثم ثالثا حتى كملوا مائة ، فأتى حبرا عارفا بحقائق الأمور فسأله ، فقال : وما يمنعك من باب التوبة ؟ فقال : وكيف أصنع ؟ قال : اذهب إلى قرية كذا فإن فيها رجالا يعبدون الله تعالى فائتهم واعبد الله فيهم حتى يأتيك اليقين ، ففعل .

فلما وصل نصف الطريق قبض الله تعالى روحه ، فابتدرته ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فاختصموا ، فجاءهم ملك فحكم بينهم أن يقيسوا مسافة الأرض من حيث سافر في التوبة وإلى المحل الذى يريده ، فإن كانت مسافة السير من حيث تاب إلى هنالك أكثر كان لملائكة الرحمة ، فأمر الله تلك المسافة أن تمتد فامتدت ، والأخرى أن تنزوى فانزوت حتي كانت التي سافرها أكثر فخطفته ملائكة الرحمة .

(١) الفرقان / ٦٨ : ٧٠ .

وهذا الرجل من بنى إسرائيل مع أن الله سبحانه وتعالى كتب عليهم ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

فهو كمن قتل الناس جميعا مائة مرة ، فما ظنك بمن كان من هذه الأمة وقد رفع عنهم إصرهم وبقي لهم الخير ممن سبق الأمم قبلهم ، فمن قتل منهم نفسا فما قتل إلا إياها لا يكون كمن قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ، فهو بالتوبة أحق وأجدر.

وأما ما قاله ابن عباس : لا توبة لك . فذلك رجل كان يقتل ثم يتوب فقال : هل لى من توبة ؟ فقال له : لا توبة لك لأن نيته أن يقتل ثم يتوب لأن ذلك إصرار . وأما من فعل الذنب ثم بعد أن فعله تاب وندم و إنما غلبه هواه والشيطان وحكم عليه القدر ، فتلك توبة مقبولة لا محالة.

ومن ثم ما كان من الزجر الوارد فى الكتاب أو فى السنة يبقي على حاله كقوله صلى الله عليه وآله وسلم «سبعة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : الناكح يده ، والزانى بحليلة جاره ، والضارب والديه حتى يستغيثا ، والمؤذى جيرانه حتى يلعنوه ، ومدمن الخمر، والفاعل والمفعول به إلا أن يتوبوا » وأمثال ذلك ، لأن معاملة الله سبحانه وتعالى لعبده يوم القيامة

(١) المائدة / ٣٢ .

على مقتضى حكمته ، كذلك هذا الرجل الذى من بنى إسرائيل قاتل المائة ، من ذا يعلم أن مثله يتاب عليه إذا قتل ؟

وقد ورد في حديث أنه يخرج رجل من النار بعد كذا أعواما واسمه هناد وهو مقطوع بخروجه من النار إلى الجنة ، فأي مزية أعظم من هذه ، وفى حديث آخر « أنه توزن أعمال رجل فتستوى الحسنات والسيئات فيقال له : لو زادت حسنة لرجحت ودخلت الجنة ، فامض إلى الناس فالتمس منهم حسنة ، فيمضى على أناس لهم حسنات كالجبال ، فيستعطيهم حسنة فلا يرضون ، فيمر برجل له حسنة واحد وسيئات كثيرة ، فيقول له : خذ هذه الحسنة التى معى فإنك أحق بها منى لكونك بها تدخل الجنة ، فيقال له : خذ بيده وادخلا الجنة » وهذا الإيثار عند الله سبحانه وتعالى أمر عظيم .

فقال بعض أصحابه : وأنا سمعت أن رجلين انكسرت بهما سفينة فبقي أحدهما على لوح ، فالتفت إلى صاحبه وقال له : ألك أهل ؟ قال نعم ، قال فاركب على اللوح فإنك أحق بالبقاء منى لأنى ليس لى أهل ، ومنه رجل يأمر الله به إلى النار فيقول رب كيف تعذب رجلا شاب فى الإسلام ؟ فيدخله الله تعالى الجنة ، ولو كان دخوله الجنة لشيبه لما دخل النار شائب ولكن معاملات الحق سبحانه وتعالى فى ذلك اليوم على مقتضى حكمة الله ، وفيه يحاسب على مثاقيل الذر.

* * *

وسئل رضى الله تعالى عنه : عن قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾[1].

فأجاب : إنه قد غلط فى تفسيرها كثيرون بما ذكروا من أنه دس إبليس فى النجم : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ، وهذا لا يحكم به عقل ، ولا يقول به من له أدنى مسكة من قواعد الإيمان ، فلو كان ذلك لحصل شك فى جميع الكتاب والسنة ولبطلت الشرائع حيث تمكن إبليس من أن ينطق على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حاشا وأبعده الله أن يتمكن من ذلك ، ثم إن النبى صلى الله عليه وآله وسلم إذا اتفق له ذلك فكيف بسورة القصص التى اتفقت للنبيين قبله ، لم يسمع شىء من ذلك فى كتاب منزل من الكتب المتقدمة ولا عن بنى إسرائيل فى حديث من أخبارهم ، ولا عن سلف ولا عن خلف، ولكن تفسيرها ظاهر لا غبار عليه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ .

وأمانى الرسل وبغيتهم أن يؤمن قومهم ، فيلقى الشيطان في أمنيته تلك بأن يفسد عليه قلوبهم فلا يؤمنوا ، بل يقولون حين يدعوهم للإيمان كما قال قوم نوح ﴿ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾[2] وقوم شعيب ﴿ يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ

(١) الحج / ٥٢ .
(٢) المؤمنون / ٢٤ .

مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾[1] .

ونحو هذا كثير ، فكل نبى يتمنى أن يؤمن قومه فيلقى الشيطان فى أمنيته تلك ﴿ فينسخ الله ما يلقى الشيطان ﴾ من قلوب من آمن منهم في قلوبهم ﴿ ثم يحكم الله آياته ﴾ فى قلوبهم ﴿ ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض ﴾.

وذلك ما خيل لهم من أن نوحا بشر مثلهم وما هو عليهم بعزيز، ومثل تصويره لهم أن تركهم لما يعبد آباؤهم لا يكون ، وأنه من المحال ﴿ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

فانظر إلى عود الضمائر من قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ﴾ أى يعلمون أن ما جاءهم به رسولهم هو الحق فيؤمنوا به ، فالذى يلقى الشيطان يكون فتنة للذين فى قلوبهم مرض والذين أوتوا العلم لا يوثر فيهم ما يلقى الشيطان، بل يعلمون أن ما جاءهم به رسولهم هو الحق فيؤمنوا به.

* * *

(١) هود / ٨٧ .

وسئل رضى الله تعالى عنه : عن قوله تعالى ﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ ﴾[1] وفى قراءة ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾.

فأجاب : إنَّ (إلا) تكون استثنائية وتكون استدراكية ، وفى هذا الموضع يستقيم المعنيان ، فإن كانت استثنائية فالمعنى أن الجهر بالسوء لا يحبه الله إلا من ظُلِم فلا بأس ، وذلك حيث ينازع الرجل خصمه لولا أنه يجهر بالسوء لما ظهر الحق ، وعلى قراءة ﴿ مَن ظَلَمَ ﴾ بالفتح يقدر إلا من ظلمه ، وله شواهد من كلام العرب.

ولكن الاستدراك أولى بالمقام ، ويكون المعنى لا يحب الله الجهر بالسوء لكن من ظلم فلا يحب الله الجهر بالسوء منه ، بل العفو أولى به وهو الذى يحبه الله منه ﴿ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[2] ولا يكون العفو ممن ظلم إلا لمن نور الله بصيرته وهى درجة عظيمة فإن من فعل شيئا بالعبيد لأجل مولاهم فحق عليه أن يعامله بما عاملهم .

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه : قال الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[3] .

(١) النساء / ١٤٨ .
(٢) البقرة / ٢٣٧ .
(٣) الأنعام / ٩ .

أى أخرج سبحانه وتعالى النخلة من النواة ، فالنخلة وهى حية تنمو أخرجها من النواة الميتة التى لا تنمو ، ثم أخرج من النخلة الحية التى تنمو التمرة الميتة التى لا تنمو، كذلك الحبة وكذلك الإنسان ، فانه تعالى أخرج هذا الحى الذى يقوى ، ويتحرك وخلق فيه العقل الذى عليه المدار من الميت وهو المنى.

ثم أخرج من الحى الذى هو الإنسان الميت الذى هو المنى ، ثم يعلم جل جلاله ما تغيض الأرحام وما تزداد ، والعلم فى حقه هو بمعنى البصر فيعلم المعدوم كما يعلم الموجود ، ويبصر المعدوم كما يبصر الموجود ، فإن هذه النواة والنطفة والحبة من ذلك ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ ﴾[1] من النطفة : أي ما لم يتخلق فيها ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾[2] : أى ما يتخلق فيها ، والتى تتخلق يعلم كم منها إلى يوم القيامة ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾[3] أي ما يستقر منها.

يفسره قوله ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾[4] ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ وهو الذى يزلق عن الرحم إذا قضى أجله ، وهو إما نطفة أو مضغة ، وذلك من أول منى خرج وهو من آدم عليه الصلاة السلام إلى يوم القيامة ، والعلم فى حقه تعالى بصر .

قال تعالى ﴿ بكل شىء عليم - بكل شىء بصير - بما تعملون بصير - بما تعملون عليم ﴾ فمتعلقهما واحد ؛ ثم إنه تعالى يعلم الشجرة

(١) الرعد / ٨ .
(٢) الرعد / ٨ .
(٣) هود / ٦ .
(٤) المرسلات / ٢١ .

التى فى بطن النواة ، ثم ما يخرج من الشجرة من تمر ، فربما يكون فى كل سنة وسق أو وسقان مدة عشرين أو ثلاثين سنة يعلم عدد هذه التمرات وهى فى بطن تلك النواة إلى منتهاها ثم ما يغرس منها فتنمو منها نخلة ثالثة ثم رابعة إلى يوم القيامة ، وما لم يغرس بل يلقى ، كل ذلك يعلمه فى بطن هذه النواة الواحدة ، وعلمه تعالى بمعنى البصر فهو يرى جميع ذلك حبة حبة وإنسانًا إنسانا وهم فى العدم ، فسبحان العالم جل جلاله وتقدست أسماؤه ولا إله غيره .

قال تعالى : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[1] أتبع فلق الحب والنوى بفلق الإصباح وهو تنفس الصباح ، لما كور الليل على النهار، وأولجه فيه أراد أن يكور النهار على الليل ويولجه فيه ، ففلق الإصباح كما يفلق إهاب الشاة إذا أريد سلخها ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾[2].

وقد يشم بعض الناس لتنفس الإصباح رائحة كما يتنفس الإنسان فتخرج رائحة فمه ﴿ وجعل الليل سكناً ﴾ أى يسكنون فيه من حركات النصب والتعب ﴿ والشمس والقمر حسبانا ﴾ أي يعرفون بهما الحساب ولا يخفى ما فيهما من منافع لا تحصيها الأقلام ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾.

(١) الأنعام / ٩٦ .
(٢) يس / ٣٧ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾[1] أى فلا ينبغى أن يستنبط منها غير ما خلقت له كما يستنبط المنجمون من القرانات وغيرها ، لأن الشيء لا ينبغى أن يستعمل إلا فيما خلق له ، ألا ترى أن الله سبحانه وتعالى خلق الثوم وجعله دواء لعلل كثيرة فهو خلق له ثم بسبب أكله تتأذى الملائكة ، حتى إنها إذا كانت رائحة الفم منتنة تختطف ما نطق به اللسان من خير من الهواء ، وإذا كانت الرائحة طيبة ابتدرت لأخذه من داخل الفم ، لكن لما كان خلقه لمنفعتنا لم يضر تأذى الملائكة به ولم يحرم علينا ، بل هو جار فيما خلق له ، كذلك النجوم خلقت لنهتدى بها فى ظلمات البر والبحر فلا نتعدى ذلك .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[2] ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾[3] أي منها ما يستقر فى الأرحام ومنها ما يزلق منها ولا يتخلق بل يبتدره أجله ، وذلك معنى قوله تعالى ﴿ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾[4] وذلك لأن العرب تسمى الخيل المحفوظة المربوطة التى يأتون إليها بعلفها ومائها مستقرة ، ويسمون ما أرسلوها ترعى

(١) الأنعام / ٩٧ .
(٢) الأنعام / ٩٧ .
(٣) الأنعام / ٩٨ .
(٤) الحج / ٥ .

وتسقى بنفسها مستودعة ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾[١] .

هذا فى مقابلة قوله تعالى ﴿يخرج الحى من الميت﴾ ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾[٢] هذا في مقابلة قوله تعالى ﴿يخرج الميت من الحى﴾ ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾[٣] وهذا أمثله ، إنما ذكر تعالى الحب أولا فى مقابلة قوله ﴿فالق الحب﴾ . ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾[٤] فى مقابلة قوله (والنوى) والدانية: هى ما سهلت على الإنسان أسبابها وإن كانت النخلة عالية لكنها باعتبار ما خلق الله سبحانه وتعالى للإنسان من الأيدى والأرجل دانية لأنه يلصق بهاشم يصعد فيها فيجني ثمرها ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾[٥] أخرجها من ميت كذلك ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾[٦] أي وجميع ما ذكر متشابه وغير متشابه.

فقد تكون الحبة الواحدة من العنب نصفها أسود ونصفها أبيض أو أحمر ، وكذلك التمر ، وكذلك الرمان قد تكون الحبة الواحدة ذات لونين ، ثم لظاهر كل حبة لون ولباطنها لون سبحانه وتعالى .

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه لما سئل : ما هى الكلمة فى قوله

(١) الأنعام / ٩٩ .
(٢) الأنعام / ٩٩ .
(٣) الأنعام / ٩٩ .
(٤) الأنعام / ٩٩ .
(٥) الأنعام / ٩٩ .
(٦) الأنعام / ٩٩ .

تعالى ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١] .

فأجاب: إنها قول الحق له «أسلم» ، ولأنه تعالى ربما كلم الأبناء وأراد بذلك الآباء مثل قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[٢] وربما كلم الآباء وأراد الأبناء مثل قوله تعالى ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٣] المكلم آدم والمراد أولاده.

وقد غلط بعض المفسرين بأن قالوا هو آدم لأنه سمى عبد الحارث وهذا باطل من وجهين :

أحدهما: أنه لا يستقيم هذا على قراءة **(شركاء)** لأنه سماه إذا فرضنا عبد الحارث وهو شريك واحد لا شركاء .

الثانى : أن آدم يعتذر يوم القيامة إذا قصد للشفاعة بذنبه الذي أخرجه من الجنة ولو كان ذلك لكان أهم وأعظم أن يعتذر به يوم القيامة ، والقرينة التى دلت على أنهم أولاده عود الضمائر للفظ الجمعية ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[٤] إلى آخر الآيات.

وهذه الكلمة التى جعلها كلمة باقية فى عقبه هى التى وصى

(١) الزخرف / ٢٨ .
(٢) البقرة / ٥٥ .
(٣) الأعراف : ١٩٠ .
(٤) الأعراف / ١٨٩ : ١٩٢ .

بها إبراهيم بنيه ويعقوب ، وليست الإسلام الذى هو نقيض الكفر ، كيف وهو الخليل؟ إنما هو إسلام الأمر إلى الله سبحانه والاستسلام له ، كما أنه عليه أفضل الصلاة والسلام لما ألقى فى النار قال الله سبحانه وتعالى لجبريل : انزل على إبراهيم وائتمر له ، فنزل إليه وهو يهوى فى الهواء وقال له : ألك حاجة ؟ فإن الله سبحانه قد أمرنى أن أأتمر لأمرك ، فقال أما إليك فلا ، فقال: سل ربك ، قال : علمه بحالى يغنى عن سؤالى .

وذلك أنه عليه أفضل الصلاة والسلام لما رأى المقام مقام اختيار ليعرف الله سبحانه وتعالى جبريل قدر هذا الرجل الذى خرج من صلب من قالت الملائكة فيه ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾(١) ؟

أجاب بهذا الجواب ليوافق ذلك المقام ، فتولاه الله تعالى بأن كلم النار من غير واسطة فقال ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾(٢) فتوقفت النار عن إحراقه لا غير ، لأن الله سبحانه وتعالى قال لها ﴿ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ فأكلت ما عليه من الحديد وهى القيود والأغلال التى كانت عليه تؤذيه.

وهذه معاملة الله تعالى لمن أسلم أمره إليه ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ

(١) البقرة / ٣٠ .
(٢) الأنبياء / ٦٩ .

إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾(١) فإنك إذا توسطت بالعبد ليعطيك شيئا أو يدفع عنك شيئا فما ذلك إلا لأحد أمرين : إما أنك ترى أن هذا العبد أكرم من سيده ، أو أن خزائن العبد ملآنة وخزائن السيد معطلة ، أو تعتقد أن العبد أقدر على دفع هذا الأمر الذى تريد دفعه عنك من سيده ، أو أنه أشفق عليك من سيده أو أعلم بوجودك من سيده ، وهذا غير جائز ، نسأل الله عز وجل العافية من كل بلية .

قال الشاذلى رحمه الله عز وجل لما سئل عن الإسلام. هو الاندماج فى طى الأحكام من غير شهوة ولا إرادة ، وقال عمر بن عبد العزيز وهو مريض لما قيل له هل تشتهى شيئا ؟ فقال ما يقضى الله تعالى .

* * *

وسئل رضى الله تعالى عنه : عن قوله تعالي ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٢) .

قال : ذلك مثل قوله تعالى ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾(٣) أي إنما وصفوا الله سبحانه وتعالى بغير ما وصف به نفسه فهو منزه عن ذلك ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾

(١) لقمان / ٢٢ .
(٢) الصافات / ١٨٠ : ١٨٢ .
(٣) الصافات / ١٥٩ ، ١٦٠ .

لأنهم لا يصفونه سبحانه وتعالى إلا بما وصف به نفسه.

وكذلك عباد الله المخلصون ، وهم يعبدون الله بإخلاص المحبة لا لأجل دنيا ولا لأجل أخرى ، فإن الله سبحانه وتعالى قال ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾[1] وهو سبحانه وتعالى يريد الصحبة فكأنه قال : فأين الذين يريدونى .

ثم أفرد ﴿ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾[2] وعيسى روح الله عليه الصلاة والسلام مر بقوم يعبدون الله تعالى فعبد الله معهم ثم قال : لماذا تعبدون الله سبحانه وتعالى ؟ قالوا : خوفا من ناره ، فقال : قادر أن ينجيكم منها.

ثم رحل عنهم فمر بقوم يعبدون الله تعالى فعبد معهم ، ثم قال لهم لماذا تعبدون الله ؟ قالوا طمعا فى جنته وشوقا إليها ، فقال : قادر على أن يدخلكم الجنة . ثم مر بقوم فوجدهم يعبدون الله سبحانه وتعالى فعبد معهم ثم قال لهم : لماذا تعبدون الله سبحانه وتعالى؟ قالوا : ابتغاء وجهه ، قال : هذه درجة المقربين وأنا أمرت أن ألازمكم . ثم جلس يعبد الله معهم ، فهؤلاء لا يمكنهم مفارقة الحق سبحانه وتعالى فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فهم فى الجنة على هذه الحالة لا يفارقهم تجليه ، وسائر أهل الجنة إنما يزورونه فى كل ثمان : أي قدرها فينظرون نظرة ينسون بها جميع نعيم

(١) آل عمران / ١٥٢ .

(٢) الكهف / ٢٨ .

الجنة ثم يتلذذون لذة تتنور بها وجوههم ويجدون من الراحة ما لا يخطر على قلب بشر ، ثم يعودون إلى أهليهم فيسرى ذلك التجلى إلى صور أهليهم فيتنورون ويكتسون نورا لم يعهد فيهم من قبل ، ثم لا يزالون متلذذين بنعيمها ما شاء الله ، ثم يجدون لها فى أنفسهم شهوة كشهوة الجائع فيؤمرون بالزيارة وهلم جرا .

* * *

ثم مضى رضى الله تعالى عنه : يخوض فى وصف الجنة فقال : أشجار الجنة جنوعها من ذهب ليس كذهب الدنيا ، إذا نظرت فى الشمس حين تطلع أو حين تدنو للغروب فهو كذلك ، طول الغصن مسيرة ثمانية أشهر وعشرة أيام ، ظلالها لا من شمس إنما هى أنوار ، إنما يجدون لذلك الظل راحة ، ثم فى حركة من حركاتهم وسكنة من سكناتهم يجدون راحة ولذة لا تخطر على قلب بشر ، ففى المشى يجدون لذة وكذا فى القيام والاضطجاع لا كما فى الدنيا ، لأنك إذا اضطجعت فى الدنيا تحصل معك راحة بسبب التعب والنصب ، وفى الجنة إنما أنت تنتقل من لذة إلى لذة فى جميع حركاتك وسكناتك، وإنما يطلق عليه فعل أو قول أو عدم ، فكله راحة ولذة لا تشبه واحدة واحدة .

ثم قال رضى الله تعالى عنه : وسأضرب لكم مثلا : إذا اجتمعت لذات الدنيا جميعها من منكوح من كل الدواب: أى لذة

كل فرد ولذة جميع مشموماتها فردا فرداً ونوعا نوعا ، وطعم كل مطعوم كذلك ، ولذة كل ملك مال كذلك فى ذات واحدة ، فكيف تكون لذة النكاح وقد صارت لذة كل فرد مجتمعة فيه كأنه قد جمعت عنده كل منكوحة حسناء وكيف طعم جميع المطعومات.

وقد صارت لذة كل فرد من آدمى وغيره مجتمعة عنده، وقس عليها سائرها ، ثم إذا انتقلت منها إلى أدنى نعيم الجنة فهو كما تنتقل من طعم حنظل إلى طعم سكر ، ثم لو اجتمعت لذات الجنة : أى كل فرد منها فى ذات واحدة من منكوح ومطعوم ومشروب وملبوس وغير ذلك لتجمع لك لذات جميع ما فى الجنة .

ثم انتقلت من ذلك إلى نظر الحق سبحانه وتعالى فهو كما تنتقل من طعم الحنظل إلي طعم السكر وأهل الله لا يفارقونه فى الجنة طرفة عين كما لا يفارقونه فى الدنيا طرفة عين .

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه : قال الله تعالى ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[1] قدم الشر هنا للاهتمام ، لأنه ربما يكون الشر قائداً لجميع الخيرات أي أن السيئة وأى شر أعظم منها قد تكون سبب القرب من الله تعالى ، وذلك لأنه ربما أورث الذنب ذلا وانكسارا فيكون أعلى من الحسنة وأغلى ، فان لكل داء دواء ،

(١) الأنبياء / ٣٥ .

وربما يعترى الإنسان عجب وزهو بالطاعة وذلكم داء ، فتلك سيئة وارتكابُ الذنب دواؤها ، فإن بعض الأولياء ارتكب ذنبا فلما تاب منه قال : رب أنت كنت غنيا عن ارتكابى لذلك الذنب ، فقال له : قد كان اعتراك زهو فسلطت عليك ذلك الذنب ليزيله عنك ، فأنت الآن عندى أحب إلى من ذلك.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم « لولا أن الذنب خير للمؤمن من العجب ما خلى الله بين عبده المؤمن وبين الذنب أبدا » قال الشاعر فى هذا المعنى:

تداويت من ليلى بليلى من الهوى
كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

وقال آخر :

انظر إلى بعين قد فتنت بها
وداونى بالتى كانت هى الداء

وقال تعالى ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[1] وقال سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[2] أي يكفر الظلم بالتوبة والظلم له معنيان :

الأول : بالنقص قال تعالى ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾[3] .

والثانى : وضع الشىء فى غير محله وكلما ظلم كفَّره بالتوبة ،

(١) الأعراف / ١٦٨ .
(٢) إبراهيم / ٣٤ .
(٣) الكهف / ٣٣ .

ولهذا أتي بصيغة المبالغة ، وفى الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم».

* * *

وسئل رضى الله تعالى عنه عن قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ** ﴾[1] ما معنى (إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا ؟) .

فأجاب : إن الجنب لا يقرب الصلاة حتى يغتسل إلا إذا كان عابر سبيل فله أن يقرب الصلاة بلا غسل ويتيمم ، وعابر السبيل هو أن يكون فى طريق مخوفة إذا اغتسل خشى أن يتأخر عن القافلة.

ثم سئل رضى الله تعالى عنه : عن **(إذا)** الشرطية فى قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾[2] الآية فقال : يؤخذ منها مفهومان .

أحدهما : للوجوب .

والآخر : لا للوجوب، أما الذى للوجوب فهو إذا كان محدثا.

وأما الذى لا للوجوب فحيث يكون متوضئا فهو أمر ليس

(١) النساء / ٤٣ .

(٢) المائدة / ٦ .

يقتضى الوجوب إنما هو نور على نور ، والنبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يتوضأ لكل صلاة إلا فى جمع حصل له صلى الله عليه وآله وسلم ، فكان يصلى الصلاتين بوضوء واحد كعرفات ومزدلفة.

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه : قال الله تعالى ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا** ﴾[1] أي محجوبا، وذلك أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان الله سبحانه وتعالى سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ... إلخ ، وذلك أن العبد متميز عن المعبود فلا امتزاج ، وهم يرون العبد ولا يرون المعبود ، لأنه تعالى محجوب عنهم ، وحقيقة النبى صلى الله عليه وآله وسلم يرونه فى حين العبودية لكنهم لا يرونه ، بل بينه وبينهم حجاب مستور فهم يرونه ولا يرونه ، وهذان ضدان لا يفترقان وذلك مثل المرآة ، فإنك ترى صورتك فيها بلا شك وأنت تعلم أنها ليست فيها .

كذلك البحران فإن الله سبحانه وتعالى مزجهما وأحدهما ملح والآخر حلو وبينهما برزخ ، وهذا البرزخ لا يدرك بل لا يعرف إلا بالذوق فإذا شربت من هذه الجهة وجدته حلوا ، وإذا شربت من هذه الجهة وجدته مالحا .

* * *

(١) الإسراء / ٤٥ .

وقال رضي الله تعالى عنه : قال الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[1] أى إن الصلاة المقبولة وهى الكاملة الجامعة لشروطها بتأدية أركانها تامة وتأمل معانى القرآن فيها والخشوع الذى هو روحها ولا تقوم الذات إلا بالروح، وفى الصحيح أن قارئ الفاتحة فى الصلاة إذا قال : الحمد لله رب العالمين قال الله : حمدنى عبدى إلى ... آخره، وقد تقدم فى أثناء هذه الكراريس فهذا ذكر الله للعبد أكبر فى النهى عن الفحشاء والمنكر.

ثم أخذ رضى الله تعالى عنه فى تفسير الفاتحة .

قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[2] أتى هنا برب العالمين : أي رب جميع عوالم هذا العبد.

ولما علم تقصير العبد وعجزه عن الحمد حمد نفسه ، بنفسه ولم يقل ربى لأنه سبحانه وتعالى يحمد نفسه بلسان عبده ، وكل من أراد به خيرا حمد نفسه بلسانه ، فما أعظم هذه المزية لهذا العبد الذى يحمد الله نفسه بلسانه ، وبسبب مروره على لسانه يأجره عليه ويجازيه ويقربه فى الدارين وبالنعيم الدائم ، فلله الحمد على الحمد ، لأن الإنسان حال قراءة القرآن نائب عن الله تعالى .

---

(١) العنكبوت / ٤٥ .

(٢) الفاتحة / ٢ .

قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ﴾[1] فأضاف الكلام إلى الله تعالى ، مع أن الناطق به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وقوله تعالى ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾[2] لما ذكر اسمه جل وعلا ترقب السامع بأي صفة يصف الله نفسه ، ثم استشعر صفة تخويف كالجبار والقهار ، فقال سبحانه : لا خوف عليك لأنه الرحمن الرحيم ، وهما اسمان فى أعظم مراتب الرجاء .

قال تعالى ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾[3] لما ادعى العباد أن لهم ملكا في الدنيا عاملهم بقدرهم ومقتضى جهلهم ، وإلا فهو المالك في الابتداء والانتهاء ، ولم يذكر ملك الدنيا لأنها لا تعدل عنده جناح بعوضة ، فذلك استهانة بها وإظهار لحقارتها ، وفيه تخويف للكافرين وتأمين للمؤمنين : أى أن الله سبحانه وتعالى ملك يوم الدين ، وهو الذى تنزل فيه الشمس بقدر ميل حتى يلجم العرق الناس ، مع هذا يحاسب على مثاقيل الذر.

﴿ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[4] فالمؤمن يستبشر بذلك ويعلم أن لله سبحانه وتعالى يعلم بخفيات أعماله الحسنة وظواهرها

---

(١) التوبة / ٦ .

(٢) الفاتحة / ٤ .

(٣) الفاتحة / ٣ .

(٤) الكهف / ٤٩ .

وصلاته تلك وهو فيها يعلم أنها ستعرض فى ذلك اليوم عند من يقول مالك يوم الدين فيزيدها تحسينا ، والكافر يزداد تهديدا وتوعيدا .

ثم قال تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] أي لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك فى عبادتنا إياك

﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[2] الصراط المستقيم : هو صراط اللّه : أي الموصل إلى اللّه بسرعة لأنه لا اعوجاج فيه ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾[3] فإذا أحب اللّه شخصا كان سمعه الذى يسمعه به ، وبصره الذى يبصر به إلى آخره ، وسلك به صراطه المستقيم، ثم صراطه المستقيم هو صراط الذين أنعم اللّه عليهم .

قال تعالى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[4] وهم الذين أحبهم اللّه وهداهم إلى الإسلام ، فقد أنعم عليهم بأعظم نعمة ، إذا لو أوجدك فى دار كفر ما عرفت إلا ما هم عليه وكان عندك ما هم عليه هو الصراط المستقيم.

وقال تعالى ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[5] المغضوب عليهم فسرهم النبى صلى اللّه عليه وآله وسلم بأنهم

(١) الفاتحة / ٥ .
(٢) الفاتحة / ٦ .
(٣) الأنعام / ١٥٣ .
(٤) الفاتحة / ٧ .
(٥) الفاتحة / ٧

اليهود ، فهم مغضوب عليهم لأنهم ما عبدوا اللّه قبل ظهور النبى صلى اللّه عليه وآله وسلم إلا بما يطابق أهواءهم ليس للّه خالصة، إذا لو كانوا مخلصين فى عبادة اللّه من قبل لآمنوا بالنبى صلى اللّه عليه وآله وسلم ، لأنهم يجدونه مكتوبا عندهم، وإبليس كان يعبد اللّه قبل خلق آدم ، لكن لحلاوة يجدها عند العبادة والتذاذ ، فلما أمره اللّه بالسجود لآدم لم يجد تلك الحلاوة واللذة فأبى واستكبر ، وكان إبعاده ولعنه ، وانقلبت أنواره ظلمة ، وحلاوته مرارة ، وقربه بعداً ، وإمهاله إنما هو فى مقابلة ما عبد اللّه من قبل، فهو كالخزى لأن اللّه تعالى لا يضيع عمل عامل ، ولو كان له العقل الوافى لما سأل الإنظار - أى الإمهال - ، بل لو سأل الموت في تلك الحالة كان عذابه عذاب كافر ولا يعذب عذاب جميع من أطغى.

﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فسرهم النبى صلى اللّه عليه وآله وسلم بالنصارى ، لأنهم قصدوا اللّه سبحانه وتعالى لامن الصراط المستقيم ، بل جعلوه عيسى وجعلوه متحيزا ، فهذا هو الضلال ، كذلك المسلم ربما كان يصلى ولا يبتغى بها وجه اللّه ، بل يرائى بها أو لأجل شىء غير اللّه ، فهو فى غير صراط اللّه ، بل هو فى صراط المغضوب عليهم ، وإذا عبد اللّه بغير ما جاء به كتاب اللّه وسنة رسوله ؛ فقد سلك صراط الضالين ، اللهم ألهمنا رشدنا.

ثم إذا قلت آمين فمعناها اللهم كما هديتنا وأنعمت علينا بالوقوف بين يديك على هذا الوجه الذى شرعه لنا رسولك صلى الله عليه وآله وسلم فأنت مبتدئ بهذا الإحسان العظيم ، والكريم لا يرجع فيما وهب فأمتنا على هذه النعمة ، حاشاه يختم بالإساءة وهو بالإحسان بادئ ، وهذه النعمة التى أنعم الله تعالى بها علينا إذا شكرناه عليها زادنا منها .

قال الله تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1] فإنه أقدرنا على الصلاة بأن خلق لنا أعضاء يمكننا بها إتمام أركانها فشكرها أن نستعملها فيما خلقت له ، ثم هدانا إلى الإسلام الذى هو النعمة العظمى فشكره أن نؤدى ما وضع له ، ثم شرع لنا الصلاة التى هى عماد الإسلام فشكرها أن نؤديها على الوجه المشروع فى كل يوم ، والجميع فى زيادة إلى مالا نهاية له يزيدك في كل نعمة من جنسها والحمد لله رب العالمين .

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه : قال الله سبحانه وتعالى﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[2] والعبد مفتقر إلى سيده بقدر مطالبه فلا شىء فى الدنيا إلا والإنسان محتاج إليه لا تستقيم حياته إلا به، أول شىء العافية أنت مفتقر إليه سبحانه

(١) إبراهيم / ٧ .

(٢) فاطر / ١٥ .

وتعالى فى إعطائه إياك العافية ثم إذا صرت فى عافية فأنت تحتاج إلى كل ما تستدعيه العافية من منكوح ومطعوم ومشروب وملبوس ومحتاج إلى ذوق تأكل به المأكول وتشرب به المشروب ، وإلى شم تشم به المشموم ، وسمع تسمع به المسموع .

وغير ذلك من جميع الجوارح والأعضاء ومحتاج إلى شمس وقمر ونجوم وسماء ومطر ونبات ودواب وأنعام وبر وبحر ، بل إلى جميع ما فى السماوات وما فى الأرض التى هى مسخرات له، فهو فى جميع ذلك مفتقر إلى ربه تعالى ، ثم افتقاره فى الآخرة إليه أعظم من افتقاره إليه فى الدنيا، لأن حاجته فى الآخرة أكثر وبقدر الحاجات يكون الافتقار.

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه : قال الله تعالى﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] .

فقوله ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾[2] أي نضيق عليه ، كقوله تعالى ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾[3] أي ضيق عليه رزقه ، وقوله تعالى﴿ يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ﴾[4] لأنه لا يظن أحد أن الله لا يقدر عليه ، فما ظنك بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) الأنبياء / ٨٧ .

(٢) الأنبياء / ٨٧ .

(٣) الفجر / ١٦ .

(٤) الرعد / ٢٦ .

ثم لما ظن هذا الظن ضيقنا عليه فى ظلمات ثلاث لأنه أوقف الرحمة عليه ولم يطلقها عليه وعلى قومه ، فضيقنا عليه ووسعنا على قومه ، قال تعالى ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1] فهم ممتعون باقون فى الحياة.

ولكن هذا التضييق من الحق تعالى لنبيه يونس عليه الصلاة والسلام هو عين التوسيع لأنه تأديب ، وأى توسيع أعظم من تأديب المولى لعبده وبه الفوز والفلاح والنجاة .

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه : النكتة فى إيراد قصة الهدهد فى سورة النمل قول سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[2] فقوله : أوتينا من كل شىء ، فيه نوع زهو ونزر يسير من رائحة فخر خفى ، فأجرى الله سبحانه وتعالى على لسان الهدهد ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾[3] تأديبا له عليه الصلاة والسلام بهذا التبكيت .

ثم أنطق الله سبحانه وتعالى الهدهد بقوله ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[4] هذا فأخرج الله سبحانه وتعالى الخبء الذى كان فى طى سليمان عليه الصلاة والسلام بقصة الهدهد .

(١) يونس / ٩٨ .
(٢) النمل / ١٦
(٣) النمل / ٢٢ .
(٤) النمل / ٢٥ .

وأتى من صفات الحق تبارك وتعالى بقوله ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾[1] ولما تأدب عليه الصلاة والسلام بآداب الحق جل وعلا قال لما رأي عرش بلقيس عنده قبل أن يرتد إليه طرفه . وهذا الحد لا يتعذر دونه أبدا ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[2] .

وأراد أيضا أن يؤدب بقوله هذا : أي قوله ﴿لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[3] أصف لئلا يستفزه شىء من الشيطان لأنه قال ﴿آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[4] فهو عليه الصلاة والسلام أضاف الضمير إلى نفسه وأرد به أصف ليؤدبه ، وهذا من ألطف العبارات ، فسبحان الله العظيم ، ما أبلغ هذا الكلام الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

* * *

وقال رضى الله تعالى عنه : قال الله تعالى ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[5] فأطلق المفرور منه وقيد المفرور إليه . أى ففروا فرارا مطلقا من كل شىء إلى الله ، حتى إنه بلغ الحال بأبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لما قيل له نأتى لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضنى ، ففر من ألمه إلى الله سبحانه وتعالى ، فاذا أهمك أمر فر منه إليه سبحانه وتعالى ، فاذا سلط عليك مثلا عدو فإن قابلته بالحول والحيل والعدد وجعلتها مجردة للمدافعة فقد فررت من الله لأنه هو الذى سلط عليك ذلك العدو إلى ما معك من

(١) النمل / ٢٥ .
(٢) النمل / ٤٠ .
(٣) النمل / ٤٠ .
(٤) النمل / ٤٠ .
(٥) الذاريات / ٥٠ .

الجند والمال ، نسألك اللهم عافيتك ، وإن جعلتها إنما هى أسباب وليطمئن بها القلب .

قال الله سبحانه : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1] مع كونك معتقداً اعتقادا تاما أن النصر من عند الله وخرجت لقتال عدوك وأنت واثق بالله لا أنك معتمد على جندك أبدا ، قد فررت من العدو إلى الله تعالى .

كذلك الفقر إذا ابتلاك به ، فإن فررت منه إلى قصد مخلوق أو إلى حرفة فقد فررت من الله إلى من قصدت منافعه ، وإن فررت منه إلى الله وسلكت معنى دعاء رسول الله « لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك » كنت فارا من الفقر إلى الله سبحانه وتعالى، فان بعض أهل الحرف من الصالحين حدثته نفسه فى بعض الأيام وهو شات - أى من أيام الشتاء - شديد البرد إن لم تداوم على حرفتك فمن أين تأكل ، فحلف أن لا يطعمها مما كسب من تلك الحرفة شيئا إنما أبقى فيها لقضاء حوائج الناس منها ، فهذا معنى قوله تعالى ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾[2] .

والحمد لله أولا وآخراً

(١) الأنفال / ٩ ، ١٠ .

(٢) الذاريات / ٥٠ .

الفهرس

تقديم .	
مقدمة المحقق .	٣
تفسير سورة الفاتحة .	٦
تفسير أول سورة البقرة .	١٨
من أولها الى نهاية الآية ٧٥ .	١٠٣
تفسير سورة الضحى .	١٠٥-١١٠
تفسير سورة الشرح .	١١١-١١٧
تفسير قوله تعالى : (فويل للمصلين ..) .	١١٧
تفسير قوله تعالى : (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ..) .	١١٩
فوائد لغوية ونحوية .	١٢٠
تفسير قوله تعالى : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ..) .	١٢١
المقدم فى القرآن هو الأهم .	١٢٣
عناية الله تعالى ببعض عبيده .	١٢٣
تفسير التوكل .	١٢٦
بيان لطف الله تعالى وحسن خطابه لعبيده .	١٢٨
بيان ماوقع بشأن الأسرى فى غزوة بدر .	١٢٨

تفسير قوله تعالى : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها ..) . ١٣٠
تفسير قوله تعالى : (وما من دابة فى الأرض ولا طائر ..). ١٣١
تسبيح الحصى فى كف رسول الله صلى الله عليه وسلم . ١٣٢
تسخير الله تعالى ما فى السماوات والأرض لبنى آدم . ١٣٣
تفسير قوله تعالى : (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ..) . ١٣٥
تفسير سورة الكوثر . ١٣٦
تفسير قوله تعالى : (فلا اقتحم العقبة ..) . ١٣٧
تفسير قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ..) . ١٣٩
حول تفسير قوله تعالى : (أفرأيتم ما تمنون ..) . ١٤٠
حول تفسير قوله تعالى : (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ..) . ١٤٢
الإنسان فى كل حالة مخاطب بالموت . ١٤٢
حول قوله تعالى : (إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم ..) . ١٤٤
حول قوله تعالى : (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ..) . ١٤٥
حول قوله تعالى : (ولقد همّت به وهمّ بها ..) . ١٤٥

حول قوله تعالى : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ..) . ١٤٧
تفسير سورة الهمزة . ١٤٨
حول قوله تعالى : (يؤتى الحكمة من يشاء ..) . ١٤٩
حول قوله تعالى (ففهمناها سليمان ..) . ١٥٠
حول قوله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحنا مبيناً ..) . ١٥١
حول قوله تعالى : (وإذا حضر القسمة أولو القربى ..) . ١٥٤
حول قوله تعالى : (وقال للذى ظن أنه ناج ..) . ١٥٦
تفسير سورة قريش . ١٥٧
حول قوله تعالى : (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ..) . ١٥٨
هل القاتل له توبة ؟ ١٦٠
حول قوله تعالى :(وما أرسلنا من قلبك من رسول ولانبى .) . ١٦٤
حول قوله تعالى : (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول ..) . ١٦٦
حول قوله تعالى : (إن الله فالق الحب والنوى ..) . ١٦٦
بيان الكلمة فى قوله تعالى : (وجعلها كلمة باقية فى عقبه..) . ١٧١
حول قوله تعالى : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون ..) . ١٧٣
وصف الجنة . ١٧٥
حول قوله تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة ..) . ١٧٦

حول قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ..) . ١٧٨
حول قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ..). ١٧٨
حول قوله تعالى : (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة ..) . ١٧٩
حول قوله تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر..) . ١٨٠
حول تفسير سورة الفاتحة . ١٨٠
حول قوله تعالى : (يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ..). ١٨٤
حول قوله تعالى : (وذا النون إذ ذهب مغاضباً ..) . ١٨٥
بيان النكتة فى إيراد قصة الهدهد فى سورة النمل . ١٨٦
حول قوله تعالى : (ففروا الى الله ..) . ١٨٧